# يدٌ بيضاءُ مُشِعَّة

عبد النَّبي فرج

يدٌ بيضاءُ مُشِعَّة

مجموعة قصصية

عبدالنبي فرج

الطبعة الأولى يناير ٢٠١٦

ت ٠١٠٩٣٣٩٧٠٦٠

الغلاف : عبدالنبي فرج

لوحتا الغلاف :

البومة الصغيرة Albrecht Durer

المرأة التي تقشر التفاح André Derain

رقم الإيداع: ٢٣٨٥٦

# خِزْي

كان يعلمُ أنَّ قضاءَ اللهِ قد نفذَ، ولنْ يمرَّ الليلُ إلاَّ وقد سمِعَ طلقًا ناريًّا يشرخُ الفضاءَ، وتخرجُ رصاصة صفراء لتنغرسَ في صدرهِ، أو تُفجِّر رأسَ ابنه وينتهي أمره، وأنَّه لا قوَّة في الأرضِ تستطيعُ أن تمنعَ ذلكَ؛ لذلكَ أخذَ يبكي وحدَه في الغرفةِ بعدَ أنْ نامتْ زوجتُهُ؛ التي لا تعلم شيئًا عمَّا حدثَ، أو سيحدُثُ، ثم برق في رأسِه سؤالٌ: والجثَّة؟. أريدُ الجثَّةَ، أريدُ أن يُغَسَّلَ على شرْعِ اللهِ، ويُصلَّى عليه، وأعرفُ له قبرًا، أزورُهُ معَ أولادِهِ وزوجتِهِ وأُمِّه المَسْكينةِ. ظلَّ يُحاولُ القيامَ وجسدُهُ يُعاندُهُ، خامِلاً ،غيرَ قادرٍ على الحركةِ، عافَرَ وهو يستندُ على الكنبةِ، وفردَ طولَه، ثمَّ التقطَ الجلابيةَ الكشمير من على المِسْمار وارتداها، وخرجَ من البيت. أغلقَ وراءَه البابَ بهدوء؛ حتى لا تقوم زوجتُه وتسألُه أسئلةً لنْ يستطيعَ الإجابةَ عنها، لا أحدَ في الشَّارع، صَمْتٌ، كأنَّ البلد تحوَّلتْ إلى مقبرةٍ ، أضواءٌ صفراءُ تبخُّ منْ اللمباتِ المزروعَةِ في عواميد الإنارةِ، شَعَرَ بالبردِ منْ هذا الصَّقيعِ المتوحِّشِ؛ منْ موجاتِ الهَوَاءِ الباردِ الَّتي تنفذُ إلى عظامِهِ. ارتعشَ، فأخرجَ سيجارةً، جاهدَ حتَّى أشعلَها، سخونة تجتاحُ جسدَه، لينبتَ عرقٌ باردٌ على جبهتِهِ، سقطتْ السِّيجارةُ دونَ أن يدري،

تجاوزَ الموقفَ ودخلَ في طريق خاصّ بهم، كان الطَّريقُ متربًا ومظلِمًا تمامًا، وإضاءة القصر، تأتي من بعيد كثيفةً، اقترب، أنصتَ لصوت الكلابِ، ابتسم، جاءت الكلابُ السَّوداء الضَّخمة تجري نحوَه في شراسَةٍ، وهو يسير دون أن يبالي، حتَّى التفتَ حوله، أخذت تتشمَّمه، وتهزُّ ذيلَها، ركعَ على ركبتيه وأخذ يتحسَّس ظهورَ الكلابِ السَّوداء النَّاعمة، يُداعبُها ويضعُ يدَه في فمِها، ثمَّ قامَ وتوجَّه نحو القصرِ مُباشرة.
"لن يحدثَ شيءٌ، أنا مجرَّد رجل عجوز مسكين، ولا يمكن أبدًا أنْ يُفكِّرَ أحدٌ في إيذائي، للسِّن حُكمٌ، وأنا وصلتُ إلى سنٍّ لو تمَّ قتلي فيه فسيكونُ عارًا عليهم إلى الأبد، ثمَّ هم ليسوا بهذا السُّوءِ، هم في النِّهايةِ، رجالٌ أثرياءٌ شُرفاء، أولادُ أصولٍ، دائمًا يعطفونَ على الرِّجالِ المساكينَ أمثالي، وأنا طول عُمري أعمل خدي مَدَاسًا لهم، ولن ينسوا هذا، وكون ابني أخطأَ فسوفَ يُعاقَب، لستُ ضدَّ أنْ يُعاقَبَ، ليتركوا لي فقط جثَّة ابني؛ ليعتبروها مكافأةَ نهايةِ خدمتِي، لن يخذلونِي، أثقُ في هذا.
دفعَ البابَ الحديديَّ؛ فخرجَ الحرَّاسُ من وراءِ البابِ، وكانَ السِّلاحُ مُوجَّهًا إلى صدرِهِ.
: أريدُ أن أتكلَّمَ، خمسَ دقائق فقط، رجاءً، نظَرَ إليْه حارسٌ ضخمٌ وقال : انتظرْ.

اختَفَى داخلَ القصرِ، وعادَ بعدَ فترةٍ؛ ليفتح البوَّابةَ، ويدعه يدخلُ، يعرفُ القصرَ جيِّدًا؛ لذلكَ ذهبَ مباشرةً حيثُ يجلسونَ، قال: السَّلامُ عليكم، لم يرد أحدٌ، كانوا يجلسونَ على الكراسيِّ المذهَّبةِ في الصَّالون في الدورِ الأرضِيِّ، لم يدعه أحدٌ إلى الجلوسِ، أو الكلامِ، الكلُّ كانَ حاضرًا، كائناتٌ عفيَّةٌ، تجلسُ بثقةٍ ومقدرَةٍ.

أخذَ يتكلَّمُ عنْ حُرْمَةِ الجَسَدِ وأنَّ التَّنكيلَ بالجُثثِ ليسَ منْ شِيمِ الأشرَافِ، أخذَ يُثرثرُ عن الشَّبابِ المُنفلتِ، وعنْ الحياةِ التي ضاعتْ في أروقةِ القصر، وأهلِ السَّماحِ، الكِرَامِ، وأنَّه يُريدُ فقطْ أنْ يُواريَ جَسَد... فانطلقتْ رصاصةٌ في صدرِهِ أردتْهُ قتيلاً.

# عُرِي

جسمٌ رياضِيٌّ ممشوقٌ، يرتدي بنطلونًا منْ الجينزِ، وقميصًا رَمَاديًا، ويضَعُ سلسلةً منْ الذَّهبِ، في رقبتِهِ، شَعْرُهُ أسودُ كثيفٌ، يضعُ على عينيه نظَّارةٌ عسليَّةٌ، أخْرَجَ المِطوَاة، وحافظةً بها رُزمةٌ كبيرَةٌ منْ النُّقودِ، ووضعهُمَا على الكمودينو، ثمَّ أخذ ينظرُ في المِرآةِ ويتأمَّل ملامحَ وجهِه، لحيته نابتة ويتخلَّلها شَعرٌ أبيضُ، يكاد يُغطِّي على الشَّعرِ الأسودِ، وجهُهُ مربَّع، عيناهُ كانتا واسعتانِ سوداوانِ، حاجباهُ كثيفانِ مُلتصقانِ، تبسَّمَ ابتسامةً مُفتعلَة، فكشفَ عن أسنانٍ عريضَةٍ وسخةٍ من أثر الدُّخانِ، خلعَ القميصَ؛ فبانَ شعرُ صدرِهِ غزيرًا، التفتَ؛ فبانَ تناثرُ شعرٍ على ظهرِهِ، فتحَ دُرجَ الكمودينو، وسحبَ علبةً صغيرَةً مُربَّعةً لونُها أحمرُ، مطبوعٌ عليها رجل وامرأة، الرَّجلُ في غاية القوَّةِ، والثقة بالنفس، والمرأةُ في وضْعِ إغراءٍ تكشفُ فيه عن تفاصيلِ جسمِها المُثير، تناولَ شريط برشام، وفضَّ واحدةً وقذفَها داخلَ فمِهِ، والتقطَ زجاجةَ نبيذٍ وشربَ عدَّةَ دُفعاتٍ مُتتاليةٍ، حتَّى سحبَ ثلثها، شعرَ بانتعاشٍ، واجتاحتْه قوَّةٌ شريرةٌ جعلتْه يثقُ في قدراتِه، سحبَ الكرسي وجلسَ عليه يُمدِّدُ رِجْلهُ في استرخاءٍ، وينظرُ نظرةً غائمةً إليها، وهيَ تجلسُ على السَّرير،

ملامحُها مُحايدةٌ، وجهُها مُستطيليٌّ أبيضُ، عيناها سوداوانِ بديعتانِ، تضع كحلاً غامقًا يُضفي عليهما غموضًا وإغواءً، تطلي شفتيها بلون التُّوت، ترتدي بلوزةً سوداءَ شفافة، وحجابًا بُنيًّا، وبنطلون جينز ليكرا، أشارَ بيده؛ فخلعتْ الحجابَ ووضعتْه بجوارِها على السَّرير، فكَّتْ أزرارَ البلوزةِ فنظرَ إلى جسمِها الأبيض، تركَّزتْ نظراتُه على نهديها المُمتلئينِ المدوَّرينِ المُثيرينِ.

ظلَّتْ صامتةً وهو يتأمّلها، ويتجوَّل بعينيه على مساحاتِ جسدِها، ثم أشارَ برأسِهِ لكي تقوم بخلعِ البنطلونِ، أشارَتْ للكاميرا ..

- أغلِقْ الكاميرا

هزَّ رأسه باستنكار:

- ليه ؟
- يعني مش بكون مستريحة
- مش مطلوب إنك تكوني مستريحة
- أنتَ مجنون والله!

لم يرد

صمتتْ لحظاتٍ، ثم خلعتْ البنطلون، وأصبحتْ بالكيلوت .

قام من على الكرسيِّ،وسحب المِطْوَاة، اقتربَ منها،ثم رفع رأسها، كان وجهها أصفرَ خاليًا من الحياة، وهى تنظر إليه بضبابيةٍ، وكأنَّها في متاهة

- مش عارفة إيه المفيد إن الكاميرا تسجل اللحظات الحميمة ؟

ابتسم ساخرًا:

- أنا بحب كده!، أنا مبسوط كده!

وأخذ يرقصُ ويلعبُ بالمِطْوَاةِ نشوانَ، وقدماها مقيدتانِ تحت مؤخِّرتها، وبيد مدرَّبة ، وفي سرعةٍ خاطفةٍ مزَّق الكيلوت بالمِطْوَاةِ، وقامَ رافعًا رجليها على كتفِهِ، وأخرج عضوه، وأدخله فيها، وهيَ تغطِّي فرجَها من ضوءِ الكاميرا الذي ينتشرُ عليها .

- ارفعي ايدكِ : قالها بعنف
- بلاش، البتاعة دي بتضايقي!
- ارفعي ايدك!

تُزحزح يديها وهيَ تضحكُ بصورةٍ متقطِّعة، كأنَّ الأمرَ لا يستحقُّ، وأنَّه مجرَّد لعبة، فتقتنص الكاميرا مساحةً باذخةً من فرجِها، لتعاودَ تغطيتَه وهو يُردِّدُ بصوتٍ خَشِنٍ، قاسٍ، عنيفٍ: ارْفعي ايدكِ!، ثم يتركها ويسيرُ نحوَ الكوميدينو، وعضوُه يتأرجحُ، والواقي قد انسلتْ وسقطَ على الأرض، التقطه وسحبَ المِطْوَاة ، وتقدَّم منها مُهرولاً، ثم غزَّها بقوَّةٍ؛ فمسَّتْ جسَدَها، مُخترِقةً المَرْتبَة الأسفنجيَّة؛ فشهقتْ شهقةً قويَّةً، ورفعتْ يديها، لتضعهما على وجهِها، مُلتزِمَةً الصَّمت .

# عَرَاء

-١-

وجدتُ نفسي في غرفةٍ عاريةٍ من الأساس، إلاَّ من سريرٍ صاجٍ، ومرتبة من غير ملاءةٍ، وأنا أرْتدي قميصًا رماديًّا غامقاً بدون أزْرَار، ونصفي الأسفل عارٍ، أخذتُ أنكمشُ، وأجذبُ القميصَ؛ لكي أستُرَ عورتي، وأستغرقُ في التَّفكير فترةً طويلةً فأنسى، وأرفعُ قامتي، وعندما أنتبه على وضعي المُشين، أعود مرَّةً أخرى أشعر فيها بالخِزْي. ضجيجُ الأولاد يأتي قويًّا، خارجَ الغرفةِ، وأنا أشعرُ بالعارِ منْ كوني أقفُ هكذا بلا حوْلٍ أو قوَّة، وعضوي مُرتخٍ، ومؤخِّرتي عارية، وأنا طوالَ عُمْري أخافُ على اسْمي منْ التَّدنيس، من التَّحقير، الغُرْفةُ مُضَاءةٌ بلمبةٍ صفراءَ، تبثُّ ضوءًا ضعيفًا، لا يكشفُ شيئًا؛ بلْ يزيد من إحساسِي بالضَّياع، بحثتُ عن ملابسَ، لم أجدْ، تحرَّكتُ تجاهَ الباب بحذرٍ، وعندما مددتُ رأسي خارجَ الغرفةِ، وجدتُ الصِّبيانَ، والبناتِ، والأطفال متفاوتيْ الأعمارِ، يلعبونَ أمامَ البابَ، تراجعتُ مذعورًا، فوجدتهم يقتحمونَ الغرفةَ، و يحيطون بي، دونَ أن يُلفت نظرهم عُرْيِيْ، لمْ أكنْ أدري مَاذا عليَّ أن

أفعل؟، ثم هُيِّئ لي أنَّي رأيتُ ابني الأكبر، حاولت أن أُنادي عليه، ولكنَّ صوتي اختنقَ، دخلتُ الغرفةَ أبحثُ عن شيءٍ، لا أدري ما هو، وعادةً عندما أبحثُ عن شيءٍ ضائع منِّي أكون شِبْهَ تائه، مشوشًا، أظلُّ أدورُ حولَ نفسِي، وأنا أفركُ يدي، وأشدُّ في أصابعي في عنفٍ، ثم سألتُ هل هذا بيتي؟، لم أكنْ مُتأكِّدًا إنْ كانَ هذا المكان، الذي أنا فيه، بيتي، أم إني في مكانٍ آخر، الضَّبابُ والبرودةُ الشَّديدةُ جعلتْنِي غيرَ قادرٍ على التَّركيزِ، ولكنْ عندمَا اقتربتُ منْ التَّرابيزةِ، ووجدتُ تليفوني المحمول مُهشَّمًا، قلت إنَّني في بيتي، ولكنَّ هذه التَّرابيزةَ لم أملك مثلها؛ فهي ترابيزةٌ قديمةٌ مُتهالكةٌ صغيرةٌ ملوثةٌ بكتاباتٍ بذيئةٍ، ورسوماتٍ لقلوبٍ، وسهمٍ، وصورِ نساءٍ، وأعضاء جنسيَّة، وتذكَّرت أنَّ هذه التَّرابيزة كانت لعم عبده؛ فرَّاش مدرسة أبو غالب الابتدائيَّة المشتركة، حيثُ كانَ يضعُ عليها السَّاندويتشات، شعرتُ بالألم الذي لا يُطاقُ عندما تذكَّرتُ هذا الفرَّاش اللعين، بوجهِه التُّرابيِّ وعينيْه السَّوداوينِ الجاحظتينِ الرَّهيبتينِ، تذكَّرتُ المدرسةَ، والضَّرب المبرح الذي نلته على قدمي، وأنا في قبضته القوية، رأسي تحت ورجلايَ مقابل خيرزانة المدرِّس.

اِخْتَفَى الأولادُ، خرجتُ منْ الغرفةِ وفي يدي تليفوني المَحْمولُ المُهشَّمُ، نظرتُ حواليَّ، المبنى مدهونٌ مثل لون شقَّتي بلونٍ جَمَليٍّ صافٍ، كنتُ حزينًا جدًّا، وأشعرُ

بالضِّياعِ، فأنا لم أكنْ أملكُ مالاً لشراءِ جهازٍ جديدٍ، وأنِّي أُجاهدُ لكي أحافظَ على المالِ منْ دخْلِي القليل، خاصةً أني مدينٌ بمبالغَ كبيرةٍ، ناتجة عن حريق شقَّتي، ومصاريفَ كثيرةٍ، اضطررتُ لها، ويعلمُ أطفالي وزوجتي ذلك، ولكنَّهم مُصرُّونَ على إنهاكي ولكنَّها غلطتي، غلطتي أني كنتُ متحضِّرًا معهم، كان عليَّ أن استخدم العنفَ ، مثل كل الآباء، كان عليَّ أن أقْمَعَهم، حتَّى لو تحوَّلوا إلى كائناتٍ جبانةٍ مشوَّهةٍ، فسيتمّ إفسادهم في الشَّارع مهما حاولتُ، النُّفوسُ الشِّريرةُ ستهدمُ كلَّ بناءٍ، كلَّ ايجابيَّةٍ تزرعها فيهم، هل مطلوب منِّي أنْ أرعى كلَّ أطفال البلدة؟، ألا يكفي أنّي أنكفئُ على نفسي، وقد تحوَّلتُ إلى حارس، غفير، عيني في وسطِ رأسِي، أُتابعُ تحرُّكاتٍ الأولاد بهوس، فلو انسَلَتْ ولدٌ ونزلَ إلى الشَّارعِ أجري كالمجنون، أبحث عنه لكي أُدخلَه البيتَ وأغلقَ عليه بالمِفتاحِ، وأظلُّ أنكِّدُ عليه بالكلام السِّمِّ ....

" طبعًا ! عايز تبقى صايع زي سعيد دبَّانة؟ أكيد، ما هو مثلك الأعلى، نِفْسك تبقى زيّه؟؛ تدور في الشَّوارع طول النَّهار؟، زي اللي ودانه مدوّدة؟، نحلة؟، ويغور التَّعليم والعِلم!، كفاية انك ترضِي دبَّانة..

يُحزنني أنّ كلَّ جهادي في بناء أولادي سيتمُّ تدميرُهُ في النِّهايةِ، لا أملَ؛ سواءَ دلَّلتُهم، أو قسوتُ عليهم، لنْ

تتسلَّلَ الطُّمأنينةَ إليَّ، وسأظلُ هكذا أعيش وأن حياتي ستضيعُ هباءً.
كنتُ أريدُ أنْ أخلقَ منهم شخصيَّاتٍ قويَّةً، قادرةً على تحمُّلِ ما هو آت.
أنا لنْ أعيشَ إلى الأبد، ولكنْ أنا إنسانٌ ضعيفٌ وبائسٌ وأستحقُّ ما أنا فيه، مُكبَّلٌ بالدِّيون، رغم أنَّ الدَّائنينَ، لم يُطالبوني مباشرةً، ولكنْ كانت نظراتُ العيون، والازدراءُ المبطَّن بكلامٍ ناعمٍ وخبيثٍ، سمومًا تُنْفَثُ، الغرض منها مصلحتي "شوف أكل عيشك"، عايز تاكل عيش، شيل الكلام الفارغ دا من دماغك الوسخة، واهتم بالمحل"، وطبطبة على الظَّهْر، وضحكة، تعني في الظَّاهر، عطفًا ومحبَّة، وتعني في الباطنِ، استخفافًا وسخريَّةً.

-٢-

العزلةُ تضعُ ساترًا بيني وبين النَّاس، ممَّا يجعلني أكثرَ حريَّة وسَكينةً، ولكنْ لا يسلم الإنسانُ من أصدقاء يفرضونَ أنفسَهم عليَّ، وبحُجَّةِ الصَّداقةِ أنالُ منهم كفايتي من الإزعاج، فهذا يهزَّر معي باليد، وهذا يظل كابسًا على نفَسِي لفتراتٍ تكاد تُصيبُني بالجنونِ، مفيش ليمون؟، أو عصير فريش كده؟، وتكون أم أولادي قد نامت وأضطرُ لأوقظَها لأنَّني خيبة؛ لا أعرفُ كيفَ أصنع شيئًا، أوهيَ عوَّدتني على ذلك، وتصنع الشَّاي، أو العصير، أو أيّ شيء، وعندما يراني داخلاً بالكوب، يا سلام شوف الأصل!، شوف الذُّوق؟، بنت أصل صحيح!، فعلاً المثل يقول: "على الأصل دوَّر"، بلَّغها شُكري، و دي سِت محترمة ، والله ما تستهلها!، لكن يلَّه تكسب ثواب فيك!، أبتسمُ ابتسامةً سخيفةً، وأحاولُ أنْ أغيِّرَ في الموضوع، ولكنَّه يخرج من كلِّ المواضيعِ، اسمعْ يا سيدي- ولا سيدك إلا أنا - ويضرب بيده على كتفي بغلظة وجلافة، حتَّى أمسكتُ بيده ورميتها بعنفٍ: فيه إيه يا عم أنت؟، أنت بتعمل كده ليه؟، تراجع إلى الوراء في هدوء وقال : أنا عملت حاجة؟، يا عم أنت نازل خبْط على كتفي كده ليه؟، ردَّ عليَّ في هدوء بارد: احنا أصدقاء، دا أنت بالنّسبة لي والله أكثر من أخ!.

أخ إيه!؟، وأنا حذرتك أكثر من مرة بلاش تمد ايدك وتضرب كده!، أنت بتهيني، أنت بتذلني ليه؟، ضرب على صدره، أنا مصدوم، مصدوم بجد!، وقام من على الكرسي وسار ثم عاد مرَّة ثانية، وظلَّ ناظرًا لي فترة، وضرب كفًّا بكفٍّ ، ثم سار ولم يعُدْ ، زفرتُ وشعرتُ أنَّني أخطأت، وما كان يجب أن أكون حادًا بهذا الشَّكل، وضعتُ أصبعي في فمي، وأخذت أقرضُ في ظفري بدأب ....

# المُمثِّلة

يلبس قميصًا ملتصقًا بجسمِهِ لونُهُ أحمرُ، وبنطلونًا برمودا أبيضَ مُلتصِقًا على مؤخرته، وجهُه أبيضُ، مربَّع، أمْردُ، عليه مِسْحةٌ منْ بودرةٍ بيضاءَ أخفتْ جلدَ وجهِه النَّضر، لهبٌ أحمرُ خفيفٌ على خدِّه، وحواجبُ مقوَّسةٌ رفيعةٌ، وشفاهُه مطليَّةٌ بروجٍ أحمر قاتم، حوَّلته إلى أنثى فاتنةٍ، ضئيلٌ، لكنَّ جسمَه رياضيٌّ صلبٌ، لا يحتوي على أيِّ ترهُّل، أو دهون زائدة، يقفُ كرمحٍ، داخله مشاعرُ متناقضةٌ لم يستطع التعامُلَ معها، توقَّف أمام البابِ يُحاولُ أن يستعيدَ تماسُكه الرُّوحي، ابتلعَ ريقَه وارتعبَ من الفشلِ، مجرَّد اجتيازه الباب معناه أن يسيرَ على الصِّراطِ، إنْ سقطَ فإلى قاعِ الجحيم.

تذكَّر جملةً كان قرأها في بحثه الدءوبِ: "أظنُّ أنَّنا لا نزالُ نسمعُ في مداخلِ البيوتِ أصداء خطوات الذين سبقونا في عبوره، والذين اختفوا بعد ذلك. إنّ شيئاً يستمرُّ في الاهتزازِ بعد مرورهم ... موجاتٌ تزدادُ ضعفًا شيئًا فشيئًا، ولكنَّنا نُحسُّ بها إذا انتبهنا جيِّدًا."

ثم قال: النَّجاة قائمة دائمًا.

دقَّ على البابِ، فسمعَ صوتًا يأتي من الدَّاخل:

ادخُلْ...

دخلَ وجدَها تجلسُ في الواجهةِ، على كرسيٍّ فاخرٍ في

غرفة صالونٍ واسعةٍ جدًّا فخمةٍ، مطليةٍ بلونٍ بنيٍّ فاتحٍ. النَّجفُ، والأباجورات، موزَّعة بدقَّة تُضفي على المكانِ سِحرًا وجمالاً، ترتدي بنطلونًا جينز أسودَ، وبلوزة موف وفي يديها أساورُ وتضعُ في أنفها دبلةً، و في فمها مِبْسم الشِّيشة، وتشدُّ بقوَّة وتدفع الدُّخان بقوَّة وضجر، جميلةٌ، ملامحُها متناسقةٌ، ولكنْ جامدة لا تُظهرُ أيَّ مشاعر من أيِّ نوع، تضعُ ظلالاً سوداءَ قاتمةً حول عينيها؛ فتبرز عينيها الخضراء، وكأنها لكائن متوحِّشٍ فريدٍ، تقصُّ شعرَها كاريه مدرَّج، أسنانُها الصَّغيرةُ البيضاءُ صفراءُ من أثر الدُّخان، مدَّت يدَها، فسلَّم عليها وقبَّل يدَها، ثم رفع رأسَه ونظرَ إليها في دلالٍ، ثم ركعَ على ركبتيْه، ورفعَ حذاءَها إلى شفتيه، وهو ينظر إليها في إغواءٍ مُصْطنع، يُحرِّكُ لسَانَه خارجَ فمِهِ، ثم أخذ يُقبِّل ويلحس الحذاءَ البوت الأسود، الذي يصل إلى منتصف السَّاق، ثم خلعَ الحذاءَ وركنَه، وقام صالبًا عُودَه في مواجهتها، فهبَّ الدخان في وجهِه، رمتْ مِبْسَمَ الشِّيشة، العينُ في العينِ، الأنفُ في مواجهةِ الأنفِ، كان هناك اكتمالٌ ما كأنَّهما كائنٌ خرافيٌّ منقسِمٌ في سبيله للكمال، عندما اقترب ليقبِّلها أرختْ رموشَها وتركت فرجةً؛ لتطلَّ منها على العالم، حتَّى هبَّ نفَسُهُ السَّاخن عليها، فصدمت، كأنَّها خرجت من حلم:إيه دا؟، أنت حيوان؟، دفعته بقوة، وتركت جسَدَها لينهارَ على الكرسي، ذُعِرَ وتراجَعَ إلى الخلفِ.

فيه حاجة يا مدام؟
كمان غبي !
بدا قليلَ الحيلةِ وهو يبحث عن نجدة ، لم يبالِ أحدٌ به، أنا آسف حضرتك.
- الموضوع مش نافع!، صرخت بصوت أشبه بالصرير الحاد العنيف، أنا أعصابي بتتمزق، فاهم يعني إيه أعصابي بتتمزق حتت يا بني آدم؟.
" مذعوراً:
أوعدك، أوعدك أني أبذل أقصي جهد تتصوريه .
- أشد في شعري!، أنا مش عايزاك تبذل أقصى جهد، أنا عايزك تبقى زي الدُّور ما هو مكتوب، أنت فهمت النَّص، النَّص بيقول انك أنثي، واحدة ست، عايزة أمارس السحاق مع مرة ، عايزاك مرة فقط .
- حضرتك أنا فهمت، إن لازم أفضل راجل، والكل يحس بكده ، سامحيني، بس السيناريو ...
- بس السيناريو؟، أنت تبسبس، أنت جاي يا متخلف هنا عشان تبسبس!، وأخذت تضحك بوحشية، كأنك قريت السّيناريو وفهمت المطلوب وأنا غبية!، أنا غبية!، تناولت الحذاء وقذفته بقوة نحوه، فسقط على ظهره، فاصطدم الحذاء بالكاميرا، مدير التَّصوير انخلع وجرى تجاه الكاميرا، وجد أن الكاميرا بخير لم تمس، أحس بالارتياح، وتقدَّم منه وضربه بالشَّلوت: قوم...
قام وأخذ يعدل في القميص، ثم بحث عن مرآة، وأخذ ينظر فيها، ثم سحب قلم الرُّوج وضغط على شفتيه

بقوَّة، وسحب المنديل ومسح الزَّوائد، اقترب منها ببط، ناظرًا حوله، يرتجف، وكان الكوافير قد انتهى من ضبط الماكياج.

- حاضر يا ستّ الكلّ، أؤكِّد لكِ أني سأكون مرة، ومُزَّة كمان، ضحك ضحكةً فاترةً، وهي تنهَّدت ونظرتْ إليه، قالت بعصبية:

هديك فرصة!، بس أي ريحة ذكورة يا بن الكلب هاسحقك!، عايزك تخصِي نفسك!، أنت عبد!، خلق هوية جديدة تماماً.

- تسمحي لي لحظة؟ هزَّت رأسها علامة الموافقة، فأخذ يدور حول الكاميرا، حول مدير التَّصوير حول الممثلين، يهزُّ رأسَه:

" أنا في محنة، محنة حقيقيَّة، ولكن عندما أصل سأستردّ هويتي، سأستردّ روحي الضَّائعة، سأعود كائنًا قويًّا ممتلئًا بالقوَّة والغضب والعنف، أستطيع من خلالها أن أفرض ذاتي، ذاتي الحقيقيَّة"، ثم توقَّف أمام المرأةِ قليلاً وبعد ذلك توجَّه إليها، وانحنى يُقبِّل حذاءَها ويخلعه، ويسحب الشَّرابَ ويرميه في دلالٍ، ويُقبِّل أصابعَ قدميها، ثم انهمك في مصِّ الأصابعِ، حتَّى أشارَ له مساعد المُخرج ففردَ جسمَه بلطفٍ وليونةٍ، صعد جسمَها في خيلاءٍ وكبرياءٍ يليقُ بأميرةٍ بابليَّةٍ، يفكُّ أزرار البلوزةِ، أحست أنَّه في المود تمامًا، ففرحتْ وتوهَّجتْ، واقتربتْ منه في حميميَّةٍ وعانقته راغبةً في الكمالِ التَّامِ، تُقبِّلُ فيه، وهو مُستسلِمٌ

لشفتيها، تعرَّى كلاهما ، سحبته نحو السّرير ليمارسَ عمله، في دأبٍ، كعبدٍ جِنسيٍّ، يستغرقُ تمامًا، يتقلَّبانِ على الفِراش، وتتسلَّل داخله لذَّةٌ يتعرَّف عليها لأوَّل مرَّة في حياته، لذَّةٌ مُختلفةٌ، تجعله يتيهُ، يجعلها تفقدُ الوعيَ، والإضاءةُ تخفتُ حتَّى تغيبَ ملامحُهما، فقطْ جسدانِ يتقلَّبانِ في سُعارٍ، يفقدُ الوعيَ، ويصرخُ منتشيًا تمامًا، يصرخُ أولجي بقوَّةٍ في فرجي، وهيَ تصرخُ سأمزِّقكَ بعضوي الصُّلبِ كالسِّيخِ، أيّتُها الشَّرموطة الوسِخَة، تغرسُ أسنانَها في لحمِهِ، جسدُكِ سُكَّر يا قحبتي، يبكي من الألم، اسْحقيني، تسمعُ صوتَه فتصهلُ وتتوَّهج بفحولةٍ قادرةٍ، حتَّى ذابا تمامًا ،وعندمَا انتهتْ كانَ جسمُهما محمومًا، ولم ينتبها إلاَّ عندما زادَ التَّصفيق حِدَّةً من مدير التَّصوير والمُمثلين

- رائع! ..

قامت من عليه مُردِّدة:

فعلا ...

# يدٌ بيضاءُ مُشِعَّةٌ

## - ١ -

الذِّهابُ إلى القاهرة والعودةُ إلى البلدةِ في اليوم نفسِهِ "جحيمٌ مُجسَّمٌ"، خاصةً بالنِّسبةِ لمَنْ في مثل حالي، يتقلَّبُ في الليل والنَّهارِ على المَكتبِ أمام الحاسوبِ، ينقرُ على الكيبورد، وكلّ آنٍ يُطلُّ على الشَّارعِ برأسِ سلحفاةٍ مريضةٍ، ثم يعودُ لِلخُنِّ، لا يبالي بضعفِ نظرِهِ، ويُردِّدُ إنَّ العينَ تُستهلَكُ في كلِّ الأحوالِ، سواء نظرتَ إلى شاشةِ الحاسوبِ، أو نظرتَ إلى الطَّبيعةِ البِكرِ: سِيانِ.

ارتديتُ تي شرت رماديًّا، وبنطلونًا سَماويًا، وانطلقتُ إلى المَوقَفِ أبحثُ عن سيَّارةٍ أُجرة، لم أجدْ.

ركبتُ سيَّارةً نصفَ نقلٍ؛ لكي تنقلني للطَّريقِ الرئيسيِّ، السَّائقُ ظلَّ فترةً طويلةً ليشحِنَ السَّيَّارةَ بالرؤوسِ البشريَّةِ، لدرجةِ أنَّني هممتُ بالنِّزولِ من السَّيَّارةِ عقابًا للسَّائقِ الرّزيلِ؛ الذي يتركنا نهباً لشمس حارقة غير مبالٍ ، وصلتْ الرِّسالةُ إلى السَّائقِ ، فقال: خلاص يا أستاذ!، وتوجَّه نحو السَّيَّارة، وأدارَ المِفتاح في الكونتاك، نادت سيِّدةٌ تحمل شنطةَ خُضار على

رأسِها، لحظة يا أسطى!، توقَّف السَّائق، وقُمتُ وأخذتُ منها الشَّنطة، ووضعتُها على أرضيَّةِ السَّيَّارةِ، السَّيَّارةُ واصلتْ السَّيرَ ببطءٍ، وهيَ ركبتْ على درابزين السَّيَّارة مكاني، وأنا حائرٌ أبحثُ عن مكانٍ فقد أصبحتْ في منتصفِ السَّيَّارةِ، ولا شيءَ أستندُ عليه، أو أمسكُ فيه، لكي يقيني السُّقوطَ أثناءَ اجتيازِ المطبَّاتِ،أو الفرامل المفاجئة، والحُفر المتناثرة في الإسفلت.

انتابني غضبٌ كتمتُهُ لتجاهلها إيَّاي، على الأقل تقول شكرًا، ظللتُ على هذه الحالِ، والسَّيَّارة تقدَّمت بسرعة، حتَّى رفعتْ رأسَها واحتضنتْ عيني عينيها، كأنَّ مسًّا شيطانيًّا قد أصابني، أيّ جنون!، أيّ سِحر!، تكهربتُ؛ كيف لسيِّدةٍ وربَّةِ منزلٍ بسيطةٍ - ترتدي جلابيَّةً سوداءَ قديمةً تناثرتْ عليها بقعُ زيتٍ ووَسَخٌ- أن تكون لها هاتانِ العينانِ، لا تسألني عن لونِهما، ولكن اسألْني عن هذا الصَّفاء الَّذي يحتوي بُؤْبُؤُ العَيْنِينِ، هذه الحدقة المُدهشَة التي تحفظُ الرُّوحَ من الفسَادِ، هذا اللمعة المُضيئة التي قال فيها الشَّاعرُ :

إنَّ العيونَ التي في طرفِها حَوَرٌ  قتلننا ثم لم يُحيينَ قتلانا.

هده السَّيِّدةُ اللامباليةُ الخاملةُ، التي لا تعرفُ أنَّها تملكُ ينبوعًا فيَّاضًا من الماءِ النَّادرِ، تمنَّيتُ أن يطولَ الطَّريقُ، لكي أتشبَّعَ بجمالِ عينيها، ولكن لكلِّ شيءٍ

نهاية، والسَّيَّارةُ وصلت للطَّريقِ الرئيسيِّ، نزلتُ مغمومًا، ووقفتُ حتَّى جاء الباصُ فركبت إلى القاهرة ، بعد فترةٍ بسيطةٍ، وطيفُ عينيها يتألَّقُ أمامي، وأنا في حالةِ استغراب من أسرِ عينِ هذه السَّيِّدة لي، فالحياة ومشاغلها لا تجلعني بالمرَّة أدقِّقُ في عيون أحد، وإذا كانت هناك حاجةٌ روحيَّةٌ، للتَّمتُّعِ بجسدِ وعيونِ أنثى أدخلُ على الانترنت ، وأبحثُ عن أفلام أجنبيَّةٍ للكبار فقط، وأظلُّ أصبُّ داخلي مشاهدَ فاتنةً، لنجوم السِّينما العالميَّةِ، مونيكا بيلوتشي، إيفا منديز، هال بيري، سكارليت جوهانسن، أنجلينا جولي، شارون ستون، كاميرون دياز، جينيفر لوبيز، جيسيكا ألبا، سلمى حايك، ديمي مور، أو المتعة من خلالِ نجوم السِّينما الكلاسيكيَّةِ، لورين باكال، ريتا هيوراث، مارلين ديتريش، بيتي بيج، أفا غاردنر، مارلين مونرو، أودري هيبورن، جين مانسفيلد، غريس كيلي، صوفيا لورين، اليزابيث تايلور، بريجيت باردو، بام غرير، جاكلين بيسيه، بو ديريك.

وإذا أردتُ النَّظرَ إلى الطَّبيعةِ، كتبتُ على جوجل، طبيعة خلاَّبة، وأظلّ أغرفُ من الخُضْرةِ اللانهائيَّة، وَرْد، أشجار من كلِّ نوعٍ، غاباتٌ، نباتاتٌ، وإذا أردتَ رؤيةَ البحرِ، لا بأسَ؛ أكتب: بحار ومحيطات، فيديو، وأتلذَّذُ بمباهجِ البحرِ، والرِّمال، والأصْدافِ، والأسْماكِ المُتنوِّعةِ، والأعْشابِ البحريَّةِ، والرِّمالِ البيضاءِ،

والشَّمسِ المُشرقةِ، والنَّخيلِ المَلكيِّ، والسَّماءِ الزَّرقاءِ، ولا أُغلِقُ الفيديو حتَّى أخرجَ مُفعمًا بالبهجةِ والحبِّ، ثم تأتي هذه السَّيِّدةُ البلهاءُ، وتُخرجني من عالمي، بنظرةِ عينٍ، بنظرةِ عينٍ تجرفُ كلّ حياتي، كأنَّها تكنسُ نفاياتٍ، شعرتُ بالمهانةِ والذُّلِ، وأنَّ حياتي كلَّها لا قيمةَ لها، زمنٌ مُهْدَرٌ وتاريخٌ ضائعٌ، وكلُّ هذه السَّنوات سنواتُ عدمٍ، لا قيمةَ لها، احتجتُ للنَّظرِ في مرآةٍ، أريدُ أن أرى السُّمومَ التي خزَّنتُها طوال حياتي، كيف ارتسمتْ على وجهي؟، كيف تشكَّلتْ خطوطًا ثقيلةً من الكآبة؟، أُريدُ أن أرى الهالاتِ السَّوداءَ تُحيطُ بعيني كالكابوسِ، أُريدُ أن أنشِبَ أظافري في وجهي، أسلخ هذا الوجهَ العدم ، هذا الكيانَ البائس، أريدُ أن أضعَ شنيور كهربائيًّا في هذه الرَّأس التي لا تحوي سوى الرَّوث .

-٢-

نزلتُ من الباص، وقد كنتُ على موعدٍ مع صديقي في المؤسَّسةِ الثَّقافيَّةِ، وقد كانَ في انتظاري وظللْنا نحكي لفترةٍ ونتحاورُ حولَ المشهدِ الثَّقافي والكتابة إلخ، ثم نزلنا إلى وسط البلد، الحَرُّ خانقٌ، ندورُ من مكانٍ إلى آخر، والضَّجيجُ في الشَّارعِ يكادُ يُعطِّلُ الذِّهنَ عن العملِ، باعةُ الملابسِ احتلُّوا شوارع وسط

البلد، وأنا أدعو الله أن يلطفَ بي، ولا أسقط تحت عجلة سيَّارةٍ، فأنا ريفيٌّ في القاهرة مدهول على عيني!، أتخطَّى الطُّرقَ كأنَّني في البلدةِ ، حتَّى شاطتني سيَّارةٌ إلى عدَّةِ أمتارٍ لأتمرَّغَ على الإسفلت، ولأنِّي أعرفُ أنَّ السَّائقَ لم يخطئْ في شيءٍ، وأنَّ شيطانًا يسكن في رأسِي يلعب فيها ويقول لي: اجْرِ، دونَ أن تنظرَ إلى اليسار أو اليمين، فاعتذرتُ أنا للسَّائقِ المبلِّم من سلوكي الأحمق، أذهب لصديقي لنقطعَ زمنًا سمِجًا معاندًا وإحباطَ واقعٍ مريرٍ، نتساندُ في دروبِ الحياةِ، ونقتاتُ على الحكايةِ، والكتابة، وهموم النَّاس، أنا وصديقي، ننتقلُ من مقهى لآخر، حتَّى نستقرَّ تحت ظلال شجرةِ مقهى التَّكعيبةِ، صديقي تركني، وذهب إلى مِشوارٍ يخصُّه، لم أعرف ما هو، وليس من الضَّروري أن أسألَ، أطلبُ شايًا ثقيلا سكَّر بره، وأُخرِجُ كتابًا، لكي لا أنامَ؛ فأنا لا آمَنُ على نفسِي، وسط نملٍ من البلطجيَّةِ والشَّبيحة، في كلِّ ركنٍ، وحارةٍ، ومقهى، وكُشْك، وسوبر ماركت، وصيدليَّة، وكلَّما فكَّرتُ في غفوةٍ، تصوَّرتُ ابنَ حرام، يُخرِجُ خِنْجرَهُ، ويدفعه في جنبي ويفرُّ.

قربَ العَصْرِ، يتقاطرُ الأصدقاءُ، بأعدادٍ صغيرةٍ، لكن يوجد هارمونى بيننا، وإن كانت الجلسة، لا تخلو من معوقين، فأصبحُ في غاية الإنهاك، ولا يفلح تتالي أكواب الشَّاي في جعلي مركِّزًا، أنظرُ إليهم، كأنِّي

منتبهٌ، ولكنِّي بعيدٌ، مشوشٌ، أريد أن آخذَ دُشًّا، وأنام قليلاً، لأستعيدَ عافيتي، أُقاومُ الوخم، حتَّى تمرَّ فترةُ نوم القيلولةِ، فأُشاركُ في النِّقاشاتِ، والنَّميمةِ، ومَنْ باعَ، ومَنْ خانَ، ومَنْ في الأصلِ خائن، ومَنْ أخذَ، ومَنْ وَهَبَ، ومَنْ انخرطَ في الدِّعارةِ، ومَنْ بوَّاب الحظيرةِ، والدَّاعرونَ، أظلُّ كذلكَ حتَّى التَّاسعة، ثم أنتزعُ نفسِي، رغمَ رغبتي في الاسْتمرارِ، في النِّقاشِ، والجَدَلِ، ولكنَّ انقطاعَ السَّيَّاراتِ بعدَ العاشرَةِ يجعلُني أقمعُ رغبتي، أتحرَّكُ في اتِّجاه موقف عبد المنعم رياض، أركبُ الباص إلى إمبابة – الوحدة؛ لأنزلَ وراءَ مطابعِ إمبابة، حيثُ موقف وردان.

-٣-

العودةُ للبلدةِ دائمًا محفوفةٌ بالمخاطرِ؛ مخاطر الانتظار؛ لعدم وجود سيَّارة، أو الزِّحام الرهيب، ونظلُّ حتَّى الواحدة، أو الثانية، صباحًا، ونُضطَرُ في النِّهاية لاستئجار سيَّارة مخصوص، وأنت ونصيبك، تدفع١٥جنية، أو عشرين، أو عشرة، حسب الأحوال ..

"الباصات كثيرة اليوم، وأعداد الركاب قليلة، شعرتُ بالاطمئنان، فذهبتُ لشراء علبة عصير فواكه باللبن؛ لأرويَ عطشِي، السَّائق يُنادي، واحد وردان، واحد

وردان، شعرتُ بالغِبطةِ منْ توسُّله، وحثّه المسافرين على الركوب، السَّائقون الحُقراء باستعلائهم، ووقاحتهم يقومون بسحق الرُّكَّاب، عندما يكون هناك زحامٌ ، خاصة يوم الخميس، والأحد ، تهجم جيوش على الباب ليقابلنا السَّائق بوجهِهِ البارد، السَّمج :
مش هاحمِّل يا بهوات !!، أقفل الباب يا بني !!
نتراجع منكسرينَ، وهو يركن السَّيَّارة وينزل، يلعب بسلسلة المفاتيح، ثم يجلس على المقهى، ويكركر في الشِّيشة، أو يشرب الشَّايَ في هدوءٍ، وهو يُشعلُ سيجارة مارلبو، واضعًا رِجْلاً على رِجْل، وضحكتُه مجلجلةٌ، والرُّكابُ التَّواقوَّن للعودة في ساعةٍ مبكِّرةٍ، كيْ يدركوا بعضَ ساعاتِ النَّومِ؛ ليعودوا في الصَّباحِ التَّالي، إلى العملِ في الميعادِ، عيونُهم تحوِّمُ حولَ حركاتِهِ؛ لِعلمِهم أنَّه في النِّهاية هيحمِّل ويعود؛ لأنَّه من البلدةِ مثلنا، بعضُ الرُّكاب يُغفِّلُ من التَّعب وينسى السَّائق والسَّيَّارة، وبعضُهم يظلُّ يقِظًا؛ لأقلِّ حركة، وفي مرَّاتٍ مُتعدِّدة يكونُ السَّائقُ على اتِّفاقٍ موصولُ - عبْرَ المحمول - بينه وبين المُمرِّضَاتِ ليقومَ بحجزِ معظمِ الكراسي لهنَّ، وعندما يأتين ويجلسنَ على الكراسي، يكونُ على مِقودِ السَّيَّارة، وتُحْتلّ الكراسي، ونُصَاب بخيبةِ أمل، ونعود لننتظِرَ سيَّارة أخرى، بآمالٍ طيِّبة لحجزِ كرسِي.

-٤-

شربَ العصيرَ، واقتربَ من الباص ونظر للدَّاخل، لم يتبقَّ سوى الكرسيِّ الأخير، كان يُفضِّله لو كان بجوار الشُّباك؛ فالجلوس في المنتصفِ في حر يونيو مريعٌ، لذلكَ تراجَعَ، جلسَ على المصطبةِ الحجريَّةِ فترةً طويلةً، ثمَّ ملَّ من الجلوس ورغب في العودة إلى البيت، دخلَ الباصَ وجدَ الذي يجلس جوارَ الشُّباكِ، قد تركَ المكانَ، وجلسَ في مكان آخر، استراحَ وجلسَ في المكانِ المحبَّبِ لقلبه، تبقَّى اثنان، بعد مدَّةٍ بسيطةٍ وجدَ السَّائقَ يفتحُ بابَ السَّيَّارةِ ويضعُ المِفتاحَ في الكونتاكِ قال: إنَّ حظِّي طيِّبٌ سنكملُ الرِّحلةَ دونَ زحامٍ مُزْعجٍ، وقبل أنْ تتحرَّكَ السَّيَّارة، دخلتْ كالسَّهم فتاةٌ طويلةٌ، مُنتقِبةٌ، تزحزحتُ أُخلي مكاني لها بجوار الشُّباكِ، لأنَّ من قلَّةِ الذَّوق أن أتركها تجلسُ بيني وبين الرَّجلِ الآخر، تضعُ حقيبةً جلديَّةً لونُها بُنِّي فاتح، فخمةٌ ناعمةٌ، لأنَّ جزءًا منها كان على حِجْري، ضغطتُ على جاري في الكرسي حتَّى لا ألمسها خوفًا من إحراجي، وفضحي أمامَ أهل بلدتي، حاولتُ أن أنظرَ إليها، ولكنَّني أحسستُ بالحَرَجِ، السَّيَّارةُ تنطلقُ بسرعةٍ، وأخذ السَّائقُ المُنحني بقوَّةٍ، فاحتكّ جسدينا وأحسستُ ملمسَ ذراعِها الطريَّةِ، انتبهتُ، تململتُ في جلستي ووضعتُ ذراعي بمحاذاةِ ذراعِها، كانتْ تقبضُ

بيديها على تليفونِ محمول، نظرتُ إلى كفِّ يدِها كانتْ فاتنةً. يدٌ بيضاءُ مُشِعَّةٌ، وأصابعُ صغيرةٌ، أظافرُها مطليَّةٌ بلونٍ أسودَ، يُضفي عليهما سِحرًا وجمالاً، بلعتُ ريقي وقد أحسستُ أنَّ كلَّ الماء داخل جسمي قد تبخَّر، كانتْ تضعُ دبلةً ذهبيَّةً، في الأصبع البنصر، فعرفتُ أنَّها متزوجةٌ، كانتْ تضعُ عدَّة خواتم ثمينةٍ في أصابعها، أخذتُ أنظرُ إلى يديها، وأتأمَّلُ سحبَةَ الأصابعِ، ورقتها وهشاشتها، وبي رغبةٌ عارمةٌ للإمساك بها، لمسها، لعقها، وضعها داخل فمي، أُزحزحُ يدي أكثر لكي أقتربَ من يدها، وفي نيَّتي أنْ أرمي يدي على يدها، في أيِّ مطبٍ، ثم أسحبَها في أمانِ الله، شعرتْ بعينيَّ تتحسسانِ يديها، فسحبتْ كمَّ النِّقابِ وأخفتْ يديها، شعرتُ بالحرج والإحباط ، نظرتُ يسارًا إلى البيوتِ القبيحةِ المُتربةِ، والمَحَالِ المتتاليةِ، بأنوارِها الكثيفةِ، أضواءُ النِّيون تلمع، وأنا أخبو، نظرتُ بطرفِ عيني مرَّةً ثانية، وجدتُ يديها تتمدَّدانِ ناصعتانِ وفريدتانِ ، نظرتُ إليها أتأمَّلُ القدرةَ، أخذ السَّائقُ يدورُ بسرعةٍ رهيبةٍ، رميتُ يدي بسرعةٍ، فسقطتْ على أصبعِها الكبير، تحسَّسته ببطءٍ واجتاحتني إثارةٌ جنسيَّةٌ حارقةٌ جعلتني أتخلَّى عن تحفُّظي وجبني، وأُزحزحُ رجْلي لتلتصِقَ بسمَّانةِ رِجْلها، وأحسستُ نعومةً ودفئًا جعلاني في حالة تألُّقٍ روحي، أهتزُّ اهتزازًا خفيفًا، كأنِّي درويشٌ في متاهةٍ،

مُنجذِبٌ إلى فضاءٍ لا متناهٍ، منخلعٌ من واقعٍ أرضيٍّ فجٍّ، انتبهتُ على إضاءةِ السَّائقِ صالون الباص وطلب الأجرة، أدخلتُ يدي في جيب البنطلون فمستْ يدي وِرْكَها الليِّنةِ، كدتُ أجنُّ، ناولتني الأجرة، قلت: خلِّي، هزَّت رأسَها، فأخذتُ منها الأجرة، وناولتها للرَّاكب في الكرسِي الأمامي، سرعانَ ما أغلقَ السَّائقُ الإضاءةَ، حرَّكتُ يدي ببطءٍ حتَّى مسَّتْ يدَها، وثبَّتُّها مكانها، وهي صامتةٌ، ومع اهزازات السَّيَّارة نشأ احتكاك بسيط، ولكنَّه ناعمٌ ومثيرٌ، رفعتُ أصبعي الصَّغير ووضعتُه بجوار قبضة يديها، ومسستُ جلدَها الطَّريَّ، أتحرَّكُ بهدوءٍ ولكنْ بتصميمٍ، حتَّى اضطربتْ وسحبتْ يدها ، تنهدتُ، تنهيدةَ مُبتَلَى، ونظرتُ إلى عينيها المختفية، تحتَ ستارٍ أسود، ثم وضعتُ رأسي على حافة الكرسيِّ الأمامي، وتصنَّعتُ النَّومَ، بعد فترةٍ رفعتْ الحقيبة وعدلتْهَا، ثم ربَّعتْ يديها فرأيتُ يديها قريبة منِّي بصورةٍ أذهلتني، تسحَّبتُ بيدي وأمسكتُ أصبعَها الصَّغير بين أصبعي الكبير والأوسط، وأخذت أدلك فيه، وشعرتُ بخدرٍ وانفعالٍ شديدٍ، ثم رفعتُ أصبعَها الصَّغير، وقرَّبته من شفتي، حاولتْ أن تسحبَه ولكنَّني قبضتُ عليه بقوَّةٍ، فاستسلمتْ، أخذتُ أتشمَّمه، وأمس به شفتي، ثم أدخلتُ أصبعَها داخلَ فمي، كوعي يمسُّ ثديها، وتنفُّسها يزيدُ، أخذتُ أمصُّ في أصبعها وأنا في غاية النَّشوةِ ، ثم طبعتُ قبلةً على كفِّ يدها،

وأنا أتشمَّمُ جلدها النَّاعمَ، البلدة تقتربُ، وأنا ألعنُ الزَّمن، أخرجتُ الموبايل، وكتبتُ رقمي عليه وقرَّبته منها، لكي تراه، وأنا أتمنَّى من الله، أن تحفظَه وتتَّصلَ بي، فكَّرتُ أن أستمرَّ في ركوبِ السَّيَّارةِ بجوارِها، على الأقلِّ أعرفُ بيتها، ولكنْ مستحيل فالوقت متأخِّرٌ، وبعضٌ من أهل بلدي يركبون معي السَّيَّارة، وعدم نزولي في هذا الوقت المتأخِّر سيُثيرُ الشُّبهات حولي، خاصَّةً أنَّني أركبُ جوارها طوال الطَّريق، ثم إنِّي سأنزلُ في بلدٍ لا أعرفُها، وفي شوارعَ لم أسِرْ فيها قبل ذلك، خِفْتُ خوفًا حقيقيًّا، لذلك قبل المطبِّ،ومَدْخل البلدةِ تركتُ يدَها الجميلة، وعندما توقَّف الباص نزلت ممرورًا ،أقفُ في العَرَاء.

# السَّيِّدة ذات القُرط

- ١ -

بيتُنا في شارعٍ جانبيٍّ، وهذا مُريحٌ لي، ويعرفُ ذلك كلَّ مَنْ سكنَ في الرِّيف؛ لأنَّه يحمينا منْ فضولِ الجيرانِ، الذين يُصوِّبون عيونهم الليزر علينا أربعًا وعشرين ساعة، ويُضخِّمون الصَّغيرةَ، وينتقدون كلَّ تصرُّف، فلو جلستَ على كرسيٍّ، أو وضعتَ رِجْلا على رِجْلٍ، أو شربتَ سيجارةً، أو انطويتَ على نفسِك، أو كنتَ اجتماعيًّا أو مصليًّا مزكيًّا، أو فلاتيًّا، في كلِّ الأحوال أنتَ مُتَّهمٌ، ويتمُّ سلخُ جلدك، والطَّعن في شرفِك وعِرْضِك أينما تسير، وعلى أيِّ جانب تنامُ، فلا فائدةَ؛ لذلكَ أنا اعتبرُ نفسي مَلِكًا، وحدي في الشَّارع، أجلسُ على الكرسيِّ الخيزرانِ قدَّام البيت، وأمامي التَّرابيزة الصَّغيرة، لأعلِّمَ عليها الواجبَ المدرسيَّ لطلاَّب مدرسة أحمد عرابي الابتدائية، يوميًّا، ما عدا الخميس، والجمعة .

أذهبُ فيهما إلى الغيطِ مع أخوتي، لمساعدتهم في الأرضِ، ولو لم يكن هناك عمل في الغيط أذهبُ أيضًا معتبرًا الأمرَ "ويك أند"، بعد العصرِ أشربُ شايًا، وأضيِّعُ النَّهار، وأعودُ بعدَ أنْ أقومَ بصلاةِ العشاءِ في

المصلِّيةِ المعرَّشةِ بالغاب على شاطئِ البحرِ، هناك مُتعةٌ، تجعلُ الواحدَ ينسى فيها المدرسة، والتَّدريس، وخراءَ التَّلاميذ أولادِ الحرامِ، وسخافاتِهم، وغباءَهم المريعِ، ولكن كم عُمر السَّعادة؟ ، قصيرٌ، ولكن يجب أن تعرفَ أن هذا لا يعني أنَّني أُحبُّ أن أكون فلاَّحًا أزرعُ وأقلعُ، وتُصبح مهنةً، هُراء!، الزراعةُ والأرضُ رائعتانِ مادمت أجئ إليهما ضيفًا، استثناءً طارئاً، أمَّا أن أظلَّ كلَّ يومٍ أخرجُ من البيتِ لأعزقَ الأرضَ، خاصةً في موسمِ الذُّرة، أو أحشّ البرسيم في طوبة، أو تنظيف الشُّونة من الرَّوث، أو الرِّي في منتصفِ الليل، أو النُّزول لتسليك الفانوس من الحشائش، الَّتي تسدُّه ويجعل الماء الخارج من ماكينة الرِّي ضعيفًا، فهذا مستحيلٌ!، نار التَّدريس ولا جنَّة الزِّراعة، ثم إنَّ الجلوسَ بملابس نظيفة أمام الباب قيمة!،خاصة وأنا أضعُ رجْلا على رجْل، وفى فمي سيجارة فلوريدا مُعتبرَة، وأشدُّ النَّفَس وأُخرجه في روقان وراحةِ بال!،وكفى الأستاذ راح، الأستاذ جاء، أُمتِّعُ العينَ بالوجهِ الحَسَنِ من التي تقف أمامي في بلكونة العمارة المواجهة لنا، بجلبابها الفِضفاضِ الورديِّ المنقوشِ عليه زهور سوداء، تنظر في لامبالاة، للحقول الممتدَّة أمامها، نحيلة، ممشوقةَ القوام كرُمحٍ، لا تضعُ على رأسها غطاءً مثل الفلاَّحات؛ فهيَ زوجةُ الطَّبيب، والموظفةُ الإداريَّة في المدرسةِ التي أعمل بها والسَّيِّدة

الشِّيك التي ترتدي أكثر الملابس أناقة في البلدة، الودود التي تتعامل برُقيٍّ مع المُدرِّسين، والإداريِّين، والطَّلبة، أحاول دائمًا، أن أكون قريباً منها، لذلكَ أعمل كلّ شيء تحبه، كلَّما قابلتها أنحني انحناءةً بسيطة، وأقول لها في نبرة مسرحيَّة، سيِّدتي المَلِكة المتوَّجة على العرش، فتضحك، وأقول لها نُكتًا تُضْحِكُ طوبَ الأرض!، وكلما تصوَّرت أن العلاقةَ تدخل قليلاً في العميق، وأُحاولُ أن أضفى جِدِّية، على نبرة صوتي، وأهمس بكلام غامضٍ، تضحك ساخرةً، أنت عبيط ؟، أنت بتتكلِّم كده ليه؟ أعرق وأقول:عايز حفرة صدَّام اختفى فيها!،وعندما تقابلني مرَّة ثانية، في الحوش، أو في الكانتين، وأتجاهلُها، وأعمل غضبان ، تدخل على حجرة المدرسين وتقول: " استيقظ الأرنب في الصَّباح، وذهب إلى أمِّه، وطلب منها الأكل، ماما جاءت بالخَس والجزر؛ ليأكل الأرنب، ولكنه نظر إليها وقال غاضبا: كل يوم خس وجزر، وقرَّر الأرنب الغضبان أن يترك ماما"، ساعتها تنهار مقاومتي، وأغنى مع السَّيدة نجاة "ما أحلى الرجوع إليه"

الشَّارع الذي أسكنُ فيه مُتفرِّعٌ من الشَّارع العموميِّ، لا يسكنُ فيه سوى عائلتي الموقَّرة، وجارنا العظيم الشَّأن السَّيد أبو غبيط العايق، وهو عايق مفيش كلام!؛ الجلاَّبيَّة الكشمير المكويَّة النظيفة المزهرة، الصّديري، الشَّعر المسرَّح بعناية - مش أبو غبيط اللي يلبس طاقية

طويلة والقفطان التَّمام، مع أنَّ النَّاس بطَّلت تلبس قفاطين!، حتَّى الصّديري اكتشف الفلاحون- فجأة- أنَّه لا يُناسِب العصر وأنه يخنق، وأنَّ الفانلة المحلاَّوي أنعم على الجسم، ولكن هو، حتى لو في شهر يوليو، حيث شمس الله المُوقدة: القفطان يا سعدية، ويُعطِّر نفسَه بكولونيا خمس خمسات، و لا يقوم بالأعمال الشَّاقة، أو المحتقَرَة في عُرْفه، مثل تحميل الحمار السِّباخ من الشُّونة، أو الخروج بالبهائم إلى الغيط، فكان يقوم بهذه المهمَّة ابنُه الصغير عصام، أو زوجته سعديَّة، ويقوم هو بعد ذلك بحشِّ البرسيم، عندما يكون الولد في المدرسة، وفى وقت إجازة المدرسة الصَّيفيَّة، يصبغ الولد صابغة العبيد!، يجلس في الخُصّ، و يضبط دور الشَّاي "الموكن" وينده "ابو إسماعيل"، وحسين عبَّاس، وسعيد أبو زينب، وفازع أبو غريب، ويشدّ في سهراية طويلة.

والولد ابنه جواه مِرْجَل يغلى بالغضب، وهو ولا على باله .

وضعتُ صفرًا كبيرًا للطَّالب في الكشكول، يبقى يخلِّي الأستاذ عبد الفتاح ينفعه، وركنت باقي الكشاكيل على التَّرابيزة الصَّغيرة، لكي أنعم باستراحةٍ قصيرة أتَأمَّـل فيها السَّيدةَ ذاتَ القرط، ثم أعودُ لأراجِعَ إجابات الطَّلبة.

خرج أبو غبيط وتوقف أمامي مباشرة، ثم استدار ناحية بيته وطلب منْ سعديَّة زوجته، أن تقوم بتطريب الشُّونة، وأنت رايح فين يا بو عصام؟ . نظر إليها نظرات ناريَّة ، ليكى فيه؟، ليكى فيه يا مَرَة؟، قلت: ما هو دا آخرة انك تارك لها السَّايب فى السَّايب يا بوعصام، الله يرحمه أبوك لو كانت واحدة رفعت عينها كان يكسر لها أسنانها.

شفت يا أستاذ، غلطنا يا عم، والله الواحد بيتعامل معها من باب الرِّفق بالحيوان الأخرس، ما هو الواحد لو عامل النسوان دي، على أنهم بني آدمين، يتعب في حياته!، ردَّت أم عصام: وأنا عملت إيه؟؛ ما أنا من صباحيَّة ربّنا شغالة!.

أيوه!، أيوه يا حلوة!، ردي علىّ كلمة بكلمة!، وحرَّك يدَه في عصبيَّة، لازم تاخدي، مصروف التَّهزيء والضَّرب بالمركوب، عاد مُسرعًا وبصق على وجهها، عجبك كده!. خلاص يا خويا!، روح ، روح الله يسهلها لك . هزَّ رأسَه فى حسرة، وأخرج علبة سجائر سوبر وناولني واحدة، ميه مسا، وانطلق، وهي أخرجت الحمار من الشُّونة، وعليه الغبيط وبيدها المقطف والفأس، واقتربت مني وقالت لي في وجهي

: أنت قاعدتك سوء!

قمت من على الكرسي، قاعدتي سوء؟، ماشي!، ماشي يا سعديَّة!، كشكول عصام آهه!، ورفعته في مواجهتها، صِفر!، إن نجح ابقي تفِّي على وِشِّي .
ضحكت سعدية فجأة ضحكة شبه نهيق الحمار،وقالت:
صدَّقت؟، دا أنا بضحك معاك!، هو احنا لينا بركة إلا أنتَ ؟
قلت في سِرِّي: آه يا شعب يخاف ما يختشيش! .
ابنك بليد يا سعديَّة بس أنا باقي على الجيرة، وباخالف ضميري، وابنك بينجح كل سنة بالغش والتَّدليس، وجاية في الآخر تبخِّي في وشِّي سمومك .
وضعت المقطف والفأس واقتربت منِّي.
وعليَّ الطَّلاق زي الرِّجالة: أنت في مقام رمضان أخويا!.
خلاص يا سعديَّة عشان خاطر العِشرة مسامحك، وعشان تعرفي إنِّي أصيل،حذفت الصّفر وأديت عصام عشرة على عشرة! . رفعت يديها للسَّماء:
تفرح!، يرزقك ببنت الحلال اللي تريَّح بالك، وتكون لك مش عليك، وتركب المرجيحة يا بن فاطمة!
انفجرتُ في الضّحك وقلت لها:
أنا ساذج يا سعديَّة وكلامك يفسد أخلاقي!
بصبصت لي:
أنتِ آه منك!، دا أنتَ عِلق على كبير!.

ضحكتُ حتَّى كدتُ أقعَ على ظهري، وهيَ حملتْ المقطف، والفأس، وذهبتْ تُحمِّل الحمار التُّراب من الكوم الموجود أمام البيت .

في يوم كنت في الفصل أشرح حصة الرياضيَّات، سمعتُ صرخةً قويَّةً، رميت صباع الطباشير، وتركت الفصل، بعد أن حذرت الطَّلبة من الخروج ، وجدت المدرِّسين يهرولون تجاه الكانتين، تتبَّعتُهم حتَّى وصلنا، وجدنا السَّيدة ذات القرط منهارة، وهي تبكي وملتصقة بالحائطِ ، ناظرةً إلى الأرض، وفى يدها كوب ليمون، لم تستطع أن تُقرِّبَه من فمها، والمُدرِّسات جوارها يُطيِّبنَ خاطرها، وهيَ تشهقُ، ثم رفعتْ شعرَها الذي يسقط على جبهتها، ووضعتْ فيه مشبكًا، فأشرقت حلمة أذنها الفاتنة، وظهرَ الحلق الدبلة الكبيرة يتأرجح فيها، وبدَا انبثاقٌ دمويٌّ حولَ الثُّقبِ الذي يدخل فيه الحلق، ومدير المدرسة - وهو إنسانٌ شرسٌ عنيفٌ ، من عائلةٍ كبيرةٍ في القريةِ - يُمسِكُ فرَّاش المدرسة من ياقة جلابيته ويضربُ فيه بعنف، وأخذَ يجذبه ، والفرَّاشُ مُستسلِمٌ؛ يضربه بالشَّلوت والبونيات في ظهرِهِ وعلى قفاه، حتى أدخله حجرة المُدرِّسين، وعرفنا بعد ذلك أن المخبول أمسكَ صدرَ السَّيِّدة، وبرَّر- بعد ذلك عملته - أنَّها كانت تضحك كثيرًا معه، وأنَّه تصوَّرَ أنَّها كانت تُحبُّه، و لن تغضبَ من ذلك، ثم تمَّ تحويله للتَّحقيق في إدارة أوسيم التي تتبعُها

المدرسة، وقد توسَّط له عضو مجلس شعب كي لا يتم رفته، وقد تحقق له ذلك، ولكنَّه نُقِلَ إلى مدرسة الفاروق الإعداديَّة بكرداسة، وعندما ذهبَ لاستلام عمله، قابله ناظر المدرسة الأستاذ رياض عبد المسيح، وهو رجلٌ طيِّبٌ ومُسالمٌ ويخاف ربّنا، وقال له: أنا عارف سبب نقلك للمدرسة عندنا، و من كان بلا خطيئة فليرجمها!، بس أنا عايز أفهِّمك حاجة؛ العقاب هنا على غلطة زي دي، أو أقل منها، لا يكون من خلال التحقيق عن طريق الإدارة، أبدًا؛ دي مباشرةً، وفى التوِّ واللحظة!، وأنا أتذكر أن مدرِّسًا بالمدرسة قد فُتِنَ ببنت، في فصلِهِ، وتحرَّشَ بها، وأنا شاهد عيان، وكنت مُدرِّسًا جديدًا، لم أكنْ حتَّى تزوَّجتُ أم هاني، والله يا بني تمّ صبّ جاز عليه، قدَّام كلّ المدرسة، وتمّ حرقه، فخليك في حالك وكُلْ عيش!، وصل الكلام؟.

صار الفرَّاش في المدرسة بعد ذلك كالصِّراط المستقيم، وبعد فترة من الزَّمن، تآلف مع الأهالي، و انتقلَ مع الأسرة بعد أن باع ممتلكاته في القرية، واشترى بيتًا ثلاثَ غرفٍ وصالة وحمَّامًا، في كرداسة، وربَّى لحيته، وأصبحَ من المدرسة للجامع ، ومن الجامع للبيت .

-٣-

ظلَّت السَّيِّدةُ ذاتَ القُرطِ عامًا في أجازة بدون راتب، وعندما عادتْ كانت ترتدي حِجابًا يغطي شعرها ورقبتها، ولم يعُدْ يظهر منها غير عينينِ تلمعانِ، وقد أظهر الحجابُ أنفَها المثيرَ، الذي يلمعُ بوهجٍ ناريٍّ خاطفٍ، يسحق أيَّ إرادةٍ قويَّة، أنفٌ غريبٌ فاضحٌ شهوانيٌّ حدَ الكارثة!، أتذكَّر أنَّني أوَّل مرَّة قابلتُها، كنتُ أراها وأنا أطلُّ من باب الفصل، فوجدتُها تُكلِّم المدير، وبالتَّأكيد كانت ستمرُّ من أمامِ الفصل ؛ لكي تذهب إلى مكتبها في آخر الممرِّ، صرختُ في الطَّلبة:

أي ابن كلب سافل هسمع صوته، همرمغ اللي جابه في الأرض، يا كلاب!. وضربت- في عنفٍ - بالخيرزانة على التَّختة، التزمَ على أثرها الفصلُ الصَّمت ، واندهشتُ من قدرتي المفاجِئة على السَّيطرة على الفصل؛ أنا المعروف في المدرسة بضعفِ الشَّخصيَّة، أنا الذي لا يهمّني شيءٌ سوي الدِّروسِ الخصوصيَّة، وأخذتُ أُنصتُ إلى وقعِ خطواتِها وأحسبُها جيِّدًا، وفي الوقتِ المناسبِ بالضَّبطِ، خرجتُ من الفصل، فكانتْ في مُوَاجهتي، وأنفُها شامخٌ يتألَّق في سموٍّ، جسمي تهدَّلَ، وتراختْ أعصابي، وغرقت في عرقي، وأنا أُحاولُ أن أُخرجَ صوتي ترحيبًا بها، فكنتُ أشبهَ بالخُرْسِ المَخَابيلِ، مدَّت يدَها في رحابةٍ وبساطةٍ، ازيَّك يا أستاذ! واحشني!، عادت روحي، ووضعتُ يدي في راحتِها، وأنا فى شبه غيبوبة، كان وجودُها

فاحشًا، مُغريًا لدرجةِ أنَّني كنت مثارًا بدرجةٍ شديدةٍ، وقد اتَّصلتُ بخطيبتي، وأخذتُ أتحدَّث معها، وأُداعبُ نفسِي على صوتِها، وعندما نمتُ القيلولةَ، رَأَيتُ السَّيِّدة في حُلْمٍ مُستسلمَةً لي تمامًا، وأنا أُداعِبُ حلمةَ أذنِها المُغويةِ بلساني وأمصُّها، وشفتاها تتوهجانِ، وأنفُها يضوي كمنارةٍ، كنتُ في حالةٍ جنونٍ عاتيةٍ، حتَّى انتبهتُ من رقدتي على صرخةٍ، قمت أجري إلى الشَّارعِ، وجدتُ الصَّرخةَ تخرجُ من بيت "أبو غبيط"، تثاءبتُ، وتيقَّنتُ أن الأمرَ بسيطٌ؛ أبو غبيط يضرب سعديَّة، أبو غبيط فاعل وسعدية مفعول به!، فتحتُ البابَ، وتوجَّهتُ إلى بيت "أبو عصام"، وخبَّطتُ على الباب، ودخلت غرفة النَّوم، وجدت "أبو غبيط" قاعد باللباس عريان، فبدا كالسِّحلية، الملابس تعمل له قيمةً وهيبةً، كدت أضحكُ :

خبر إيه أبو عصام؟

مفيش، وليه بنت كلب مضروبة في مخها، عايزة تتعالج!

سعديَّة مصمصت شفايفها وقالت:

النَّاس خيبتها السَّبت والحدّ، وإحنا خيبتنا ما حصَّلت حد! .

أخذ ينظر إليها في حدَّة، وهو يغمزُ بعينه، وعوج حنكه:

يا ولية اهمدي، فرَّجتي علينا اللي يسوا وإلا ما يسواش! .
كدا يا بوغبيط ، دا الوقت غريب ويسوي وما يسواش!، تُشكر!، تُشكر يا بن الأصول! .
قرفص أبو عصام على السرير:
مش قصدي عليك، أنت منّنا، أنا قصدي على الناس، دي كلها.. وأشار بيديه.. نظرتُ لم أجدْ أحدًا.
قومي ياوليَّة اعملي شاي للأستاذ .
جلستُ على السّرير بجواره وقلت:
إيه الحكاية؟
قامت على طولها سعديَّة وقالت:
الحكاية أن الباشا أخذ حق العجل ابن الجاموسة، وشرب بيرة فى فرح ابن أبو حسين، وطلع على المسرح، والرَّقاصة هزَّت له هزّتين ورمى لها باقي حق العجل على صدر الشّرموطة .
يا وليه دا واجب وأبو حسين حبيب!
حبّك بُرص يا بعيد .
شايف يا أستاذ دي مَرَة دي؟، الله يرحمك يابا، غلطت وأنا بدفع ثمن غلطتك، ياريتك كنت كهربتني، ولا شفت الغمّ الأزلي كلّ يوم الصّبح!
وحدوا الله يا جماعة!، دا شيطان دخل بينكم!

دي شرموطة، كنت عايز رقَّاصة ترقص؟، تعالَ يا اخوي وأنا ارقص لك طول الليل!، وأخذت تهز فى جسمها وصدرها!

خلاص يا أم عصام !

نط أبو عصام على أم عصام، ومن شَعرِها أخذ يمرمغ فيها على الأرض، حتى دخل أبي:

ولد يا بو غبيط ، اعمل لنفسك قيمة!

فتركها وأخذ يرتدي ملابسَه وهو يُردِّدُ، حاضر يابا الحاج!، حاضر يابا الحاج!، ثم ناداني أبي، وسرتُ وراءَه، وعندما خرجنا نغزني في جانبي وقال:

قاعد تتفرج يا وسخ يا بن الكلب .

-٤ -

تزوجتُ، ولم أعدْ أجلسُ في الشَّارع إلا نادرًا، وانخرطتُ في إعطاء الدُّروس الخصوصيَّة للطَّلبة، وبدأتُ في محاسبةِ الطَّالب بالحصَّة بدل الشَّهر، ومعظمُ الطَّلبة لم يكونوا يهتمُّمون بكوني أشرحُ جيِّدًا أو لا، حتَّى أصبحتْ الدُّروسُ مجرَّدَ روتين؛ أن أكتبَ المذكِّرةَ وأشرح والطَّلبة فى حالة غيبوبة، طالبٌ يُخرجُ جيبه علبة السَّجائر، يرشُ عليَّ وعلى أصدقائه من الطَّلبة، غير مبالٍ بشيءٍ، المهِّمُ أن أُسرِّبُ له الامتحان وينجح في آخر العام، حتَّى أصبح البيت ولا المدرسة!،

وتحسنَّت أحوالي المالية، حتَّى إنَّني اشتريتُ قيراطين من الأراضي الزِّراعيَّة وبنيتُ بيتًا من دورينِ ، الدّور الأرضي للدّروس الخصوصيَّة، والثَّاني للأسرة، والحياة بقت معدن، شيءٌ لا يصدَّق!، فلوس بتترمَّى عليَّ بلا حساب!، فكنتُ أصرفُ ببذخٍ وأشتري أحدث الأجهزة الكهربائيَة المُستورَدة، اشتريت تليفزيونًا ملوَّنًا ٢٥ وعشرين بوصة، وأوَّل كمبيوتر يدخل البلد كان لي، وثلاجة كريازي، وبوتاجاز أربعة عيون، وتوقفت عن ملاحقة السَّيِّدة ذات القرط، وزوجتي أنجبت سماهر وخالد ، ولم يعد يشغلُني سوى جارٍ لنا، كل شغلته في الحياة أنه يعِدُّ التلاميذَ التي تأخذ عندي دروسًا خصوصيَّة، و كلَّما قعد مع أحد، يقول له:
٥٠ رأسًا دخلت اليوم!، والحسَّابة بتحسب!، والعدَّاد بيعد! .
غُلبتُ مع هذا الملعون، وكلَّما فتحتُ له الموضوعَ، يضحكُ ويغلوش على الكلام ويقول: ربنا يملاه لك بركة!. وكنت كلّ فترة أذهب إلى بيت العائلة، لأرى أمِّي؛ أنا وزوجتي والأولاد، وهيَ الدَّائمة الشَّكوى من أنَّني لا أذهب إليها، وأنني نسيتُها، أجلسُ بجوارها فترةً ثم أسحبُ الكرسي، وأجلسُ أمام البيتِ أنظر إلى عمارة الطَّبيب، وزوجته ذات القرط الجميلة، التي توقَّفت عن الذِّهاب إلى المدرسة بعد مشاحناتٍ عنيفةٍ مع مدير المدرسة، وكلّ مرَّة أمنِّي نفسِي برؤيتها دون جدوى،

وفي يوم ذهبت إلى بيتنا القديم، ليس لأنَّني أريدُ أن أري أمِّي، أبدًا، فقط ملل وعدم وجود شيء يشغلني، خاصةً أنَّنا في الأجازة الصَّيفيَّة، وقد أصبحتُ بلا أصدقاء، تساقطوا منِّي لأسبابٍ كثيرةٍ، منها غيرة، أو رخم، ودائمًا السُّخرية منِّي، كأنَّ لا شيء تغيَّرَ في الحياة، ومنهم مَنْ سافر إلى السُّعوديَّة، والإمارات، ومنهم مَنْ جدَّدَ حياته بأصدقاء جُددٍ، وأنا في كلِّ الأحوال لا أفتقدهم، أو أشعر بالحنين لأيَّامٍ مرَّت من عمرنا تشاركنا فيها، ولا أُحسُّ بغربةٍ، أو أنَّ حياتي تفتقدُ المتعةَ، رغم أنَّ أخي مثلاً يتصوَّر أنَّني أعيشُ كالبهائم؛ آكل وأشرب وأنام، روتين سرمديٌّ بغيضٌ، هو لا يرى إلاَّ نموذجَ حياته، ولكن لي حياتي!، أنا مُستقرٌّ، ولا أريدُ أن ينغِّصَ حياتي شيءٌ، أريدُ أن أستمرَّ هكذا إلى الأبد، وعندما أموت لا يعنيني أي شيءٍ؛ لا تعنيني زوجتي ، أولادي، أنا سعيدٌ بهذا الوضع، ما الذي يجعلني أغيِّرُ حياتي الَّتي لا أتألمُ فيها ولا أتعرَّضُ للخطرِ فيها وأعيش في طمأنينةٍ، لا يعكِّرُني شيءٌ، مثلاً أنا أحبُّ أن أمارسَ الحبَّ مع أمِّ طالبٍ عندي، وهيَ أرملةٌ فاتنةٌ، ومن السَّهلِ إقامةِ علاقةٍ معها، ولكن ماذا لو انجرفتُ في العلاقةِ؟، ماذا إذا استطاعتْ أن تُوقعني في فخٍّ وتُسيطرَ عليَّ، ثم أُجبرتُ على الزَّواجِ منها، أو تمَّ اكتشافُ العلاقةِ وفرضَ أهلُها عليَّ الزَّواج؟ ، ما الذي يمكن أن يحدثَ

في تلك الحالة؟، هل لي قدرةٌ على مواجهةِ أسرتي وزوجتي الجميلة وعائلتها؟، ستتحول حياتي إلى جحيم، "الباب اللي يجيلك منه الرِّيح سدّه واستريح"،هو أهلينا قالوا حاجة غلط؟!، يا فرحة أمِّي بي عشان نزوة!، أو حُب حقيقي أدمّر حياتي وأعيش في توتُّرٍ دائمٍ ، كلام فارغ!، وصلت إلى بيتنا القديم، دخلتُ على أمِّي مباشرةً، وجدتُها وحدَها تجلسُ على السّرير، وسمعتُ أصواتَ أولاد أخي داخل البيت، جلستُ جوارها:

أزيك يا حاجة؟

أهلا يا خويا، مين؟

كان نظرها قد ضعف تمامًا، اقتربتْ بوجهها منِّي لكي تتعرَّفَ عليَّ، وقد أصبحتْ تنسى حتَّى أولادها؛ أنا ماهر و محمد و محمود، هو أنا أكلت يا وله؟، أبوك جه من الغيط؟، أخذتُ أتحدَّث معها فترة طويلة، ثم أخرجت ٢٠ جنيهًا، ووضعتها في يدِها، فشعرتُ بسعادةٍ تغمرُها وهى تتحسَّسُ الفلوس، وأخذتْ تدعو لي .

زوجة أخي يبدو أنَّها سمعت دعاء أمِّي فجاءت، وأخذت تعتبُ عليَّ لأنني لم أنبهم ؛ لكي تقومَ بالواجب، ثم طلبتُ منها أن ترسلَ إلي الكرسي، وخرجتُ إلى الشَّارع أنظرُ إلى البيوتِ، وإلى العمارة، لا أحدَ سوى الصَّمت ، جاء ابنُ أخي بالكرسي ، فجلستُ عليه،

واستغرقتُ في أحلام اليقظةِ، حتَّى جاءت زوجةُ أخي بالشَّاي، أخرجتُ علبة السَّجائر وأشعلتُ واحدةً، وأخذتُ أرشفُ الشَّاي فى بطءٍ وتلذُّذٍ، حتَّى فُتِحَ بابُ بيت "أبو غبيط"، وقد خرج منه ابنه عصام، الذي رحَّب بي بمودَّة وذوقٍ رَاقٍ، فرحت بالولد الذي أصبحَ شابًا مفتولَ العضلاتِ يرتدي ترينج أزرقَ، شيك، وشَعرُهُ الأسودُ الغزيرُ أضفى عليه وسامةً، أعتذرَ إليَّ لكونه سيذهب إلى النَّادي، ثم خرجتْ أمّ عصام من الشُّونة بالحمار، والفأس في يدها والمقطف، وهى تجرُّ الحمارَ الذي أصبحَ عجوزًا ، يسيرُ في بطءٍ ، أم عصام أزيك؟، وتركتُ الكرسيَّ وجريتُ أسلِّمُ عليها في ودٍّ وسعادةٍ، وقد جرفتني مشاعرُ الحبِّ لها، وهيَ اندهشتْ من هذا الاحتفاءِ؛ لذلك فقدتْ القدرةَ على الكلام واعوجَّ فمها من الخجل، كأنَّها بنتًا بكرًا، وكانت بي رغبةٌ عارمةٌ أن أحضنَها، وأظلّ هكذا فترة طويلةً، يحتويني جسدُها الضَّامرُ، خجلتُ من نفسِي، استغربتُ احتياجي ورغبتي غير المبررةِ، لدرجة أنَّني انتزعتُ نفسِي وعُدتُ إلى الكرسي منهارًا، ساعتها شعرتُ أن الحياة كئيبةٌ، وضعتُ يدي على خدِّي واستغرقت في التفكير، في هذا المصيرِ القاتمِ، وبعد فترة رفعت ناظري، وجدتُ السَّيِّدةَ ذاتَ القرطِ تخرجُ وتقف في البلكونة، وهيَ ترتدي النِّقاب وقد عرفتُها من تأمُّلي الطَّويل في هيئتِها، نظرتُ إلى أم عصام، وجدتُ

الجلاَّبيَّة مهترئةً من تحت الإبطِ، وكلَّما رفعتْ المقطف بان جزءٌ كبيرٌ من ثديها المُرتخِي، نظرتُ إلى السَّيِّدةِ النائيةِ، وجدتُها تنظرُ إلى البعيدِ، حيثُ حقول الذُّرةِ ممتدَّة .

# سعديَّة الغازيَّة

الخطُّ كلُّه من الكيت كات إلى الخطاطبة، القناطر الخيريَّة، محافظة الجيزة، محافظة المنوفيَّة ، تعمل ألف حساب لاسم عارف غانم أبو حسين، تاريخٌ طويلٌ في مجال الإجرام، والعنفِ الجسديِّ، بناه بقلبٍ ميِّتٍ وروحٍ شريرةٍ، خسيسٌ، لا أحدَ يجرؤ أن يقفَ في طريقهِ. غانم نار على عَلم!، هجَّام حقيقي ولص متأصل وقاتل محترف، منذ نعومة أظفاره، يضربُ ضربته!، معلِّم بصحيح!، دخل السِّجن عشرات المرَّات!، في قضايا خفيفة أطولُها ثلاث سنواتٍ، في قضية ضربٍ أدَّى إلى عاهةٍ مستديمةٍ، وعند الإفراجِ اصطدمَ بوجهِ قمرٍ مُنيرٍ، روح مُشعَّة ببهاءٍ وجمال نادر، ضربَ كفًّا بكفٍّ على الزَّمن الوسخ الذي يجعل يدًا مُشعَّةً بهذا الجمالِ تُطوَّقُ بطوقٍ حديديٍّ خسيسٍ، وهيَ التَّي يجبُ أن تُوضَعَ في يدِها عقود الماس واللؤلؤ، متَّهمة في قضية نصبٍ على محلٍّ جواهرجيّ، حيث يقال أنها خدعت جواهرجيًّا؛ باعت له مصاغًا بـ ٤ ألاف جنيه، واتَّضحَ بعدَ ذلكَ أنَّها مزيَّفةٌ تزييفًا مُتقنًا، والحقيقة الجواهرجيُّ معذورٌ أيضًا يا خلق الله كيف يشك البني آدم منَّا، في هيئة حسنة، في جلالِ الجمالِ، وبهاءِ السِّحر؟، هل يُمكن السُّخرية

من فراشةٍ تدورُ حولَ مصباح هلاكِها. عَتَهٌ؛ الذي يثبتُ ويحتفظُ برأسِه سليمًا في مواجهةِ هذا الصَّاروخِ قفا، جِلْد ثخين، لا يستحق إلاَّ أن يُطعَمَ للنَّار.

المصاغُ ظلَّ في يدِه فترةً، يعلم به علاَّمُ الغيوبِ والمطَّلعُ على أحوالِ الدُّودةِ في الحجر، والسُّوس في الشَّجر، ولكنْ في النِّهايةِ يذهبُ السِّحرُ ويعودُ العقلُ إلى صاحبهِ، من التيه، وتُقلِّبُ العينُ النَّاصحةُ في الذَّهبِ الذي في اليدِ، شتَّ عقلُهُ، وصرخَ، ولماذَا هذا الصُّراخ؟، هل يعرفُ هذا المخبولُ قيمةَ المالِ، وعلى رأي المثل: "مال النُّزهي للكنزي"، ولكن ليسَ دائمًا تأتي رياحُ سفنِ النُّزهي بما يهوى، والمصادفةُ الحسنةُ لصاحبِ المحلِّ أن امرأةً غلوية - أعرفها جيِّدًا بحكم الجيرةِ السَّيئة،والتي جعلتني أكتب على حائط بيتنا: البيت للبيع، والجيرانُ أدرى بهم ربنا - تفرط في عمرها، ولا تقمع رغبتها في الانتقام، كانت ذاهبةً إلى محلِّ عوني للذَّهب، لكي تبيعَ الحلق الذي انكسرَ عدَّة مرَّاتٍ، ورأتْ أن تستبدلَ الحلقَ القديمَ بجديدٍ، وتدفعُ الفارقَ الذي كنزتْه؛ سحتوت على سحتوت، من وراء مصروف البيت، وعندما رأت الزِّينة دخلتْ المحلَّ شامخة تدفع بصدرِها الهواءَ، كأنَّها الملكة المتوَّجة تأجَّجَ صدرُها بنارٍ مُتَّقدةٍ، وارتفعَ الدَّمُ في رأسِها لدرجةِ أنَّها توقَّعتْ أن تدهمَهَا جلطة. أخذتْ تبرمُ أمام المحلِّ كالدَّبور، حتَّى خرجتْ وعلامةُ البشْرِ على وجهِها،

دخلتْ السَّيِّدةُ المحلَّ وجهُها أسودُ من الغلِّ، فوجدتْ الرَّجلَ يفحصُ بدقَّةٍ المجوهراتِ ثم صرخ: " فالصو .. فالصو"، وأزاحَ السَّيِّدةَ حتَّى أخرجَها من المحلِّ، وأغلق البابَ وأخذَ يجري في الشَّوارع يبحلقُ في المارَّةِ ويتلفَّتُ في هلعٍ، ظلَّ أكثرَ من ساعةٍ لم يتركْ شارعًا في دائرةٍ طولُها عدَّة كيلومترات، وعندما يئسَ عاد إلى المحلِّ يندبُ حظَّه العاثرِ، وكانتْ السَّيِّدةُ الصميمةُ تقفُ كالوتد، في انتظارِهِ، وعندما دخل المحلَّ، قالت له: أنا أعرفها!، نظر إليها كغريقٍ تعلَّقَ بقشَّةٍ، وذكرتْ له الاسم بالكامل، والبلد، والشَّارع، والبيت، ثم اختفتْ بدونِ أن تُبدِّلَ الحَلق، و كانَ قلبُها يُرفرفُ بالفرحِ، كأنَّها أكلتْ كيلو لحمًا، ومارستْ الجنسَ مع ثورٍ، ستَّ مرَّاتٍ!.

وأمامَ النِّيابةِ رفضَ التَّصالُحَ، ولم يلتفتْ إلى الدُّموعِ التي سالتْ على خدِّها، وظلَّت مُعلَّقةً، تلمع فيراها وكيل النائب فيميلُ، يراها الجواهرجيُّ، فيزيد حنقُهُ، ولم يرتحْ إلا وهيَ تُسْحَبُ داخلَ المُعتقلِ.

حُكِمَ على الجليلةِ بعامٍ سجن، وفي هذا اليوم المبارك تقابلت مع غانم، أمامَ المحكمةِ ، في انتظار التَّرحيل إلى سجن القناطر؛ حيثُ تقابلا وجهًا لوجهٍ؛ فنطق اسمه لها: عارف غانم أبو حسين .

نظرتْ نظرة استنكارية:

- تكون أبو رجل مسلوخة وأنا مش واخدة بالى!، خبر إيه يا جدع؟، وسَّع الطريق يا يا خايب يالي شبه القلُّوط!.. ودفعته في صدره، فتنحي، ضحك العسكري:
- روح يا بو حسين، مش كل الطير اللي يتَّاكل لحمه!، دي لحمها حنضل! ..
أكل سد الحنك، اتلهى على عينه وسكتم بكتم، لحد ما اختفت من قدامه، وبعد ما فاق من الدُّش البارد، عاد على البيت ساهمًا، يُفكِّرُ في المرأةِ التي اخترقتْ قلبه كالسِّكين في الزَّبد .

-٢-

ظلَّ العاشقُ طوالَ عامٍ كاملٍ يتقلَّبُ على الفِراش أرقًا وسهدًا، بسبب غياب المحبوبة وراء القضبان، ولكي ينسى ويهربُ من سطوةِ عينيها المتوحِّشةِ وجسدِها الجبَّار، كان يستغرقُ في العملِ بهمَّةٍ ودأبٍ يحسد عليهما، من السَّرقةِ بالإكراهِ، واقتحام شققٍ مُحصَّنةٍ، يصعبُ على أرسين لوبين اختراقها، وتفكيك سيَّارات، كانَ هذا العام هو الأكثرُ حزنًا، وتألُّقًا، وعندما انتهى وخرجت الغالية، أقامَ حفلا على الضَّيق دعا إليه الخاصة، وقدَّم فيه أكوام اللحوم والفاكهة والأرز والمكرونة، أخذ يُطلِقُ الألعابَ النَّاريَّة مبتهجًا، ثم ذهب في اليوم التَّالي إلى بيت الأبِ المنكوبِ؛ لكي يطلبَ يدَ

ابنته المصونةِ العفيفةِ سعديَّة الشَّهيرةِ بسعديَّة الغازية، وكادَ قلبُ الرَّجل أن يتوقَّفَ من المفاجأةِ السَّارة التي لا كانت ع البال أو الخاطر، وخلال ثلاثة أشهر كان غانم أبو حسين الشَّهير بالعترة يركب المرجيحة، مستغرقًا في لذَّةٍ ودَعَةٍ، لم يسبقْ أن تمتَّعَ بهما من قبل؛ لذلكَ لم يكن يخرجُ من البيتِ سوى للضَّرورةِ القُصْوى، وكان يشعر فيه بغربة، ولم يعُدْ يُطيقُ هذا العالمَ، هذه الحَيَاةَ، كانَ قد استنفذ تمامًا ويُريدُ أن يعيشَ باقي عمرَه في سكونٍ، ممَّا جعلَ السَّيِّدةَ تُصابُ بالضَّجرِ والسَّأمِ، فكانتْ تسِمُّ بدنَهُ بالكلامِ ولكنْ دونَ جدوى، حتَّى أنجبتْ سعيد الذي كان يشبه أبيه تمامًا؛ نفس الملامح، نفس البلاهة، نفس الاندفاع الجريء المفاجِئ، والتَّبلد، والشَّيء الذي كان يُخفِّفُ من الغضبِ داخلها هو تجمُّع الأشقياء؛ أصدقاء زوجها في البيت، وآمالها في استعادة البغل روحه ونشاطه، وإلا الموت لها وله، كيف لها أن تعيش تحت سقفٍ واحدٍ مع بغلٍ لا شُغلة ولا مَشغلة؟؛ لذلكَ حرمته من حقه، ورغم محاولاته وإلحاحه لم تستجبْ، حتَّى إنه فتح عليها المطواة قرن الغزال "يا بنت الناس ما ضيَّعيش نفسك" وغرس سنَّ المطواة في رقبتها.

لم تهتزَّ وظلَّتْ صامتةً، وجزءٌ منها يعلمُ جيدا أنَّه قادرٌ على فعلها، ولكن هيَ هكذا إذا أرادت أن تفعل شيئًا تفعله بدون حسابٍ للمخاطر، وفي النِّهايةِ استجابَ لها،

وقرَّر أنْ يعودَ إلى العمل، وتمَّ بالفعلِ تحديدُ الهدفِ، وفي منتصفِ ليلٍ شتائيٍّ خرجَ الرُّباعي: شحته وراء أمجد، وعوض الأعور وراء ميدو على الماكينة، الموتوسيكلات كالشياطين تهدرُ في الشَّارع، حتَّى اقتربا من الهدفِ، تم ركنَ الماكيناتِ في منطقةٍ مهجورةٍ، وسارا، وعندما لاح لهم الهدف، نظرَ شحته يبحث عن غانم لم يجده بينهم، نظر خلفه وجده يقف منحنيًا ومنطويًا على نفسِه، فبان كالكلبِ الَّذي يتبوَّلُ .

- هو، هو، إيه يا اخوتَّا، انتم ماشيين كده وخلاص؟!
- فيه إيه؟
- غانم!

التفتوا وجدوه يقعي على كوم ترابٍ، وعندما اقتربا منه ردَّدَ:

أنا مش قادر، أنا عندي حُمَّى وعيَّان

كان يرتعشُ، ووجهُه أصفرُ زي الليمون،احتاروا هل يلغوا العمليَّة؟، صفَّقَ الأعور قرفًا، ما تقوم يا خول!، ما أنت من ساعة كنت زي الثور!!.

بموت يا عوض يا اخويا

ضرب كفًّا بكفٍّ، وابتعدَ عنه، ليقترب من ميدو:

أحَّا فيه إيه؟

ثم استدارَ ناحية شِحته:

ما تتكلِّم يا عمّ!، هتعملوا إيه يا رجالة؟، احنا هنفضل واقفين كده؟
اقترب ميدو وهو يلعبُ في ميداليةٍ:
أنا باقول نسيبه مع المَكن، ونقوموا احنا بالعملية دون غانم..
وظلُّوا فترةً بسيطةً يُعيدونَ توزيعَ المُهمَّاتِ وانطلقوا حتَّى انتهتْ العمليَّة بسلامٍ، وعادوا إلى غانم، فوجدوه في أتمِّ الصِّحة وأحسنِ حال، والغريبُ أنَّه جعلهم يُقسمونَ على المصحف ألاَّ يقولوا شيئًا لسعديَّة، ورغم القسم المغلَّظ إلاَّ أنَّهم تنافسوا على من يقول الأوَّل لها، وعندما علمتْ ضربتْ خدَّها ومطَّتْ شفتيها، وأخذتْ تُردّدُ يا عِرَّة الرِّجالة!.
ومن يومها أصابها الجنونُ بسبب تخاذُلِ العار، أصبحتْ تُخرجُ الغلَّ الذي بداخلها توبيخًا وسخريةً وتقطيمًا في الموكوس، عِرَّة الرِّجالة، وهو يُقابلُ ذلك بضحكةٍ سمجةٍ، أو لا مبالاة ، أو يجري صارخًا نحوها والمطواة في يده: أنا هغُزِّك!، أنا هغُزِّك وأدخل فيكِ السِّجن يا سعدية!، خافي على نفسِك!، فتضحك ضحكةً كلّها خُبْث وسفالة مُتحدِّية: لو راجل اعملها!، أنا اهوه!.. وتفك طوق الجلابيَّة فيظهر صدرُها أمامه، فيُعاود مُداهنتها بكلامٍ ناعمٍ، والإغداقِ عليها بالفلوسِ، والهدايا الذَّهبيَّة، ولكنَّها لا تهمدُ؛ تظلُّ تبرمُ في البيتِ، كلبؤةٍ هائجةٍ، عيناه تبرقانِ برغباتٍ شيطانيةٍ،

وفى الليلِ تجلسُ معهم في الصَّالةِ وفي يومٍ سحبتْ سيجارةَ بانجو وأشعلتْهَا غيرَ آبهةٍ باحتجاجه وسبِّه لها، ثم أخذتْ تنخرطُ في الشَّرابِ معهم، وتأخذ حبوبَ ترامادول وحقنًا وقد شاطَ جسمُها، أصبحتْ تسهر طوالَ الليلِ، وتنامُ طوالَ النَّهارِ ، ولا تهتمُّ بتنظيفِ البيتِ،أو الطَّهي، إلا تحتَ ضغوطٍ شديدةٍ .

-٣-

تحتَ هالةٍ من الدُّخانِ المُخدِّرِ، وأكلٍ دَسِمٍ، يتراءى الجواهرجيّ لها، فيتأجَّجُ صدرُها بالغلِّ، والرَّغبةِ العنيفةِ، في الانتقامِ، تحاولُ إزاحةَ غمِّها، ورغباتها الشِّريرة، ولكن لا فائدة، كانتْ مدفوعةً نحو مصيرٍ أسودَ بقدمها، همستْ لأمجد، فقام مفزوعًا، كأنَّما قرصته عقربة أو ثعبانٌ أسودُ سامٌّ.

- عايزة تقضِي باقي حياتك في السِّجن؟، تشرّدي ابنك، ويبقى صايع زي أبوه؟.

رمت السِّيجارة وقالت له:

قوم نام .

تركت الصَّالة، ودخلتْ الحمَّام، وتركت الدُّش يصبُّ ماءهُ فوق رأسِها.

ما الذي ذكَّرني بك يا بن الحرام؟

ثم بكت ..

خرجتْ من الحمَّام وهي تشعرُ بالسَّكينةِ والخفَّةِ، دخلتْ غرفةَ التَّخزين، اقتربتْ من الشُّوم والعصي المركونةِ، سحبتْ شومة يُغطِّيها الغبارُ وذبل الحَمَام، أخذت تُنظِّفُها وعندما انتهت، ركنتْها وسحبتْ غيرَها، ثمَّ خرجت من غرفة التَّخزينِ إلى غرفة النَّوم، فوجدتْ عارف يغطُّ في نومٍ عميقٍ، والغلامُ في حضنِهِ، أزاحتْ الغِطاءَ وأخذتْ تُفكِّرُ في الانتقامِ من ابنِ الحَرَام الَّذي جرَّسَها.

في المسَاءَاتِ التَّالية أخذتْ تُقلِّبُ في الأشقياءِ، بحثًا عن رفيقِ طريقٍ شريرٍ، وبعد تفكيرٍ طويلٍ، وقعَ نظرُها على شحته؛ فهو الأكثرُ رجولةً واتزان، فميدو تافه وعوض خبيث خائن، أخذت تميل عليه، وتهمسُ بكلامٍ ناعم، ونكتٍ فاضحة، وتستأثرُ به في خلواتٍ حتَّى أسرَّتْ له ما في نفسِها من ضغائنَ تجاهَ القذر، وبعد فترةٍ وافقَ شحته على تأديبِ النَّخاسِ، وفى ليلةٍ مزدهرةٍ بمناخٍ طيِّبٍ وقمرٍ مُنيرٍ، ارتدتْ عباءةً سوداءَ ونقابًا، خرجتْ وفى يدها شومةٌ بطول متر، مغموسةٌ بالدَّم ومطرَّزة بالكباسين، حتَّى خرجتْ خارجَ نطاقِ البلدةِ فوجدتْ شحته يركب على الماكينةِ، ركبت وراءَه، وانطلق ينهب الأسفلت في ضراوة، وهيَ تحزمه بيديها وتُحرِّك يديها في رقَّةٍ، وعندما وصلا إلى محيط الهدفِ، ركنَ الماكينة تحتَ شجرةٍ بجوار النَّهرِ، وذهبَ لشراءِ كيلو حلاوة من محلِّ الحلواني

المفتوحِ في الميدانِ، دخلَ وطلبَ كيلو تشكيلة، العمَّال يُرتِّبونَ المحلَّ للإغلاق فترة حتَّى أغلق الجواهرجيُّ المحلَّ، وركب سيارتَه، وسارَ عائدًا إلى البيتِ، انطلق شحته يتبعه حتَّى وصلَ وهو ينزلُ من السَّيَّارة، وهيَ قفزتْ من على الماكينةِ كغزالةٍ، ورفعتْ يدها بالشُّومةِ، وضربته على رأسِهِ، فسقط على الأرضِ، وظلّتْ تضرب حتى تهشمت رأسُهُ تمامًا، وضاعت معالمها، والدَّمُ تناثر على ملابسِها، ولم يُوقفْها إلاَّ شحته، الذي حملَها بيديه القويَّتانِ ووضَعَها على الماكينةِ، وانطلقَ عائدًا وهو يشعر بالخرابِ، وأنَّه ما كان عليه أن يتبع مخبولةً، لبؤةً، شرموطةً، قاسيةً، كان يتصوَّرُ أنَّ الموضوعَ مجرَّدَ كسْرِ رِجْل، أو يدٍ، ولكن تقتل بهذا البشاعة!، و ظلَّ صامتًا، ماذا يقول؟، بنت وسخة شرموطة ضحكت على شحته!، كان يشعرُ بالعارِ أنَّه قنطرة، يشعرُ بالمرارةِ أنَّ امرأة تقتل رجلاً أمامَه، وهو مجرَّد موصَّلاتي، عندما وصلَ نطرَها من على الماكينة في قرف، وانطلقَ دون أيِّ كلمة، وهيَ لم تبالِ؛ فقد كانت تشعرُ أنَّ العالمَ عادَ لوضعِهِ الطَّبيعيِّ، وأنَّها تملكُ نفسَها، مُحرَّرةً، أنَّها استعادتْ نفسَها، وعندما دخلتْ البيتَ، وجدتْ عارف يقعي كقرد لحيم قذر:

كنت فين يا شرموطة؟.

هبَّ ليُكملَ ما خزنه في ذاكرتِهِ فوجدَهَا تُخرجُ الشُّومَةَ من العباية، وترفعها عليه فالتقطها منها، وأخذ يصفعَها بعنف أربكها، وعندما لم تجدْ حيلةً تجاهَ قسوةِ الضَّربِ، بكتْ، فتوقَّفَ عن الضَّربِ ونظرَ إليها في بلاهةٍ، ورأى الدَّمَ متناثرًا على ملابسِهَا، ظلَّ فترةً صامتًا، وهو يُدخِّنُ سيجارةً من أخرى ثم قال بصوتٍ راسخ: قومي لمِّي الهدوم .

مسحتْ دموعها في ملابسِها، ثم خلعتْ العباية ووضعتها في فرن البوتاجاز، وغيَّرتْ ملابسَها وجمعتْ كلَّ الملابسِ في بوقجة كبيرةٍ ووضعتها أمامَه، ثمَّ دخلتْ غرفةَ النَّومِ وحملتْ الغلامَ، وهو حمل البقجة، وخرجا من البيت، يلفهما الظَّلامُ والصَّمتُ، وصوتُ خطواتهم على الأرضِ، حتَّى وصلا إلى الطَّريقِ العموميِّ، ووقفا يلتفتانِ يمينًا ويسارًا، في انتظارِ سيَّارةٍ تُقلُّهم للبعيدِ .

# ليلُ رَجُلٍ هَرِمٍ

-١-

يظلُّ طوالَ النَّهارِ مستغرقًا في نومٍ مُمتدٍّ، فقط يستيقظ ليُصلِّيَ الفرضَ، ثم يعود مرَّةً ثانية، نهارُهُ يمر كطيفٍ، ومعَ ميلِ الشَّمسِ إلى الغروبِ، تكون الحاجة قد جهَّزتْ له الطعام، ينزلُ، يتوضَّأ ويُصلِّي العصر، وعندما ينتهي من الطَّعام يخرجُ ليجلسَ على المصطبةِ أمامَ البيت، ثم يلحق به برَّاد الشَّاي والأكواب، عادةً يُطلُّ جارٌّ برأسِهِ من الشُّبَّاك، أو شابٌ يقفُ على رأسِ الشَّارع، أو فلاَّح عائدٌ من الغيط، ويرى الشَّاي ، دماغُه تخرب .

ازّيك يابا مسعود؟، حرثت الأرض؟، ملَّحت الذرة؟،الأنفار قصُّوا الشَّجر؟، عملتوا إيه في معوض ابن الحاج سدحمد؟، ويصبّ الشَّاي ويوزِّع، ويشد سهراية، والحاج أبو مسعود يمطّ رقبته ويبحلق عندما تمرُّ امرأةٌ أو بنتٌ، وعيناه الكليلتان لا تسعفانه في معرفة أصلِها، أو فصلِها:

بنت مين دي ياد يا عبد العزيز؟

بنت شوق !

شوق مين؟

شوق مراة عبد الرَّاضي..
قول كلام غير داه ؛ شوق عندها بنت فِرعة كدا؟..
طرح بدري يا شيخ محمود، دي مخطوبة لابن عويس الحلاَّق..
كمان مخطوبة؟، الزَّمن بيجري ياد يا عبد العزيز!
آمال إيه يا عمّ الشِّيخ !
وأبوك عامل إيه؟
تمام!
وأمك كويسة؟
والله كان جالها دور كده ودِّيناها للدّكتور، بس لسه حالتها مش تمام..
خلِّي بالك منها يا عبد العزيز، رضا الأب من رضا الرب، خلي بالك دا سلف ودين!
والله نتمنَّى لهم الرِّضا يا بو مسعود، ولكن هما اللي جايبين التَّعب لنفسهم..
ازاي؟ ، قول ازاري؟
أقولك ايه؟، أبويا حاشر نفسه في اللي ليه فيه واللي مالهوش فيه، لامؤخذه يا حاج عامل زي البقدونس!
يمرُّ رجل يلبس جلابية
مين داه يا سعيد؟
دا الحاج عمران..
عمران بقى حاج؟
ابنه في السعودية وبعت له..

أنا زرت الأراضي المقدَّسة في سنة ٨٠ كان "الحاج" ليه هيبة؟، كنا ثلاثة اللي راحوا السَّنة دي، دا الوقت هاصت!

ثم يصمت، مرَّتْ بنت

مين اللى لابسة جلابية سودة وعايقة في نفسها دي؟

دي مرات أبو الحديد..

أبو الحديد عبد الله، هو مش مات من كام سنة؟

آه، دي مراة حفيده، أبو الحديد عبد الله أبو الحديد عبد الله..

يغور في داهية، وهو متجوز بنت مين؟

والله ما اعرف؟

يصمت الشِّيخ محمود، وهو يزفر من الغضب، من الكلب بن الكلب، ساعتها عقله يدور بقوَّة، يُريد أن يعرفَ لماذا لا يقول له ما اسم أبيها، فكَّرَ في امتحان للولد:

كان فيه خناقة امبارح في عزبة ياسين، تعرفش كانت بين مين ومين؟

هو كان فيه خناقة ساعتها؟

ينفعل الحاج محمود:

قوم يا بن الكلب يا وسخ!

ويسحب العصا، ويرفعها لضرب الولد على رأسِه، ولكنَّه يجري من أمامه حتى يختفي، ثم يعود في يومٍ آخر، يكون الشَّيخ محمود نسي تمامًا ما جرى، ويعود

يسأل بنت مين دي؟، وتتغيَّر الأسماء، ولكنْ يظلُّ السِّيناريو محفوظًا، ولمَّا ابنه حمدان يخرج ويجده واضعًا رأسَه قريبًا من الشَّخص الذي جواره، في اهتمام، يبتسمُ ويغمزُ بعينه، والآخر يُشيرُ من وراء رأس أبيه؛ علامةً على أنَّ الحاج، لا مؤاخذه، خرَّف، والمفروض عزرائيل يبعت له فيزا.

-٢-

يدخل بعد أن يُصلِّي العشاء ليجلسَ أمام التِّليفزيون، يسمعُ المسلسلَ، ويتسامرُ مع الأولاد، ويعرف ما جرى في الغيط، وحال البهائم .. إلخ، ويتسرَّب الأولاد مع السَّهرة، ولو لم يتسرَّبوا يقوم بطردهم، ليشاهدَ الفيلم العربي على القناة الأولى بدون إزعاج، وعندما ينتهي الفيلم يكون مِزاجُه عنبًا!، خاصةً عندما تكون بالفيلم مشاهد ساخنةٌ، وينظر على البومة التي تنام وهىَ فاتحةٌ حنكَها وتشخِّرٌ بصوتٍ يجيب نهاية الشَّارع، يتمنَّى أن يسحبَ المخدَّة، ويكتم أنفاسها ليعجِّلَ بقضاءِ ربِّنا، ثم يتراجعُ ويتخمد مغمومًا، اليوم لم يستطعْ أن ينامَ، فقد أشرق ثدي نجلاء فتحي من طوق الفستان الأحمر المنقَّط باللون الأسود، في فيلم "الرّصاصة لا تزال فى جيبي" ، لدرجة أنَّ عضوَه انتصبَ فأزاحَ اللحاف ، ومدَّ يدًا موتِّرةً، لتقبضَ على

سمَّانة رِجل عجفاء للحاجة، جعلتها تنتفضُ من على السَّرير، وقد سقطت التَّربيعة من على شعرِها، فظهرَ شعرُها المصبوغُ بالحناء منكوشًا، فبدت كأم عشوش!، خاصة مع جحوظ عينيها .

فيه إيه يا حاج ؟

خجل الحاج، خاصة مع صوتِها الخشن الضَّجر:

أبدًا كنت عايزك تقومى تعملي كوباية شاي ..

كوباية شاي في انصاص الليالي؟، خبر إيه يا حاج؟.

دماغى مش رايقة يا أم الولاد .

ضربت يدها على اليد الأخرى وقالت:

وإيه اللي معكَّر مزاجك يا حاج؟؛ أحسن أكل وأحسن شرب..

ضحك الحاج هيء هيء هيء والله زمان يا حاجة، وقام من على القياس ورفع اللحاف، واندس جوار أم الولاد، وأخذ يجوس بيده في لحمها، انتفضت الحاجة مذعورة، ورمت اللحاف ونزلت تجري من على السّرير..

خبر إيه يا حاج، عيب عليك، هو أنتَ صغير على الكلام دا يا حاج؟!

أنت حلالي يا أم الولاد ،وذنب كبير تمتنعي عنِّي!

أنت بتقول إيه يا حاج، أنا أم رجَّالة!، عيب الكلام دا!

انفعل الحاج وقال:

عليَّ الطَّلاق لأمارس حقي، حتَّى لو أنتِ على فراش الموت!
جلست على الأرض ووضعت رأسها بين يديها:
يا دي المصيبة السُّوده !
نزل من على السّرير، واقترب منها وسحبها من يدها، رفعتْ رأسَها، ودموعٌ تترقرق في عينيها متوسلةً:
وحياة العشرة اللي بينا بلاش يا حاج!
أخذ يشدّ فيها، وهي تتشبَّثُ برِجْلِها في الأرض، وهو يجرجرُها مُستعصيةً، حتَّى أخذ يلهثُ، تركها وسحبَ المَدَاسَ، وأخذ يضربُ فيها على رأسِها، وهي تصدُّ عن رأسها بيديها، وتبكي حتَّى ترنَّحَ وكاد يسقط لولا أنَّه استندَ على الحائطِ، ثم انسحب مجروحًا، يكاد يموت كمدًا وغيظًا، وظلَّ في السّرير يقظًا، ينظر إلى السَّقفِ حتَّى سمعَ صوتَ الفجرِ، خرجَ من دفءِ الغرفةِ إلى الشَّارعِ، حيثُ السَّماء رصاصيَّة، وبرودة الجوِّ جعلته ينتفضُ، لم يجد أحدًا في الطَّريق، زفرَ زفرةَ مكروبٍ، وأخذ يمدُّ في خطوِهِ تجاهَ الجامعِ القريب .

# عبَّاد الشَّمس

تستريحُ في البنطلون الجينز وفوقه بلوزةٌ رخيصةٌ، تشتريها من سوقِ الملابس المُسْتعملَة، تظلُّ فترةً طويلةً في السُّوقِ تتأمَّلُ البلوزات، البنطلونات، دون أنْ تمدَّ يدَها، فقط عيناها تتجولان، وعندما تلفت نظرها بلوزةٌ، تقف أمامَها وترى نفسَها فيها، هيَ مرايا نفسِها، تتحرَّكُ بحُريَّة ومرونةٍ، تسيرُ، تجلسُ، تضعُ يدَها على خدِّها، وعندما تستريحُ إلى بلوزة، تُشيرُ إلى البائع دونَ كلمةٍ، يقول السِّعرَ؛ فتُخرج الفلوس، وتُعطيها للبائعِ دونَ فِصالٍ، لو لم تكن الفلوس كافية، تشكرُ البائعَ وتُهرولُ خارجَ السُّوقِ، أحيانًا يتصوَّرُ البائعُ أنَّها تُريدُ البلوزةَ بسِعرٍ أقلّ فينادي عليها:آنسة.. يا آنسة، ينفع معاكي وينزّل من سِعرها، لا تلتفتُ، أو حتى تقف على بائعٍ آخر، كانت تخافُ من الباعة، وتراهم مُجرمين، وأيّ صراعٍ معهم هو انتهاكٌ لها، وإفسادٌ لروحِها، وبسببِ ذلكَ تخلَّت عن بلوزاتٍ كانت تراها على جسمِها رائعةً، بلْ إنَّها أحيانًا كانت تعودُ ودموعُها تسيلُ على خدِّها، ولكنْ "أبداً، لن أخوض معارك تستنزفني"، الرُّوحُ تزدهرُ عندما تظلُّ حُرَّةً، في بيئةٍ نظيفةٍ، لم تلوَّثْ؛ لذلكَ صنعت حولَ ذاتِها قشرةً صلبةً، ترفضُ أيَّ مخلوقٍ يقتحمُها؛ فظلَّ عالمُها محدودًا،

تراوح بين عدَّةِ أصدقاء يعرفونها ويحترمون خصوصيَّتها، لِمَا تتميَّزُ به منْ نبلٍ وبراءةٍ نقيَّةٍ، رغم أنَّها تدخلهم في اختبارٍ صعبٍ عندما تسمعُ شيئًا خاطئًا، أو تفهم، بصورةٍ غير صحيحةٍ، أمرًا ما، فتثورُ ثورةً عارمةً، وتتَّهمُهم بالخيانةِ والغدرِ وتنسحب مُهرولةً للخارجِ، وتنقطِعُ عنْ لقاءاتِهم تمامًا، ثم بعد فترةٍ طويلةٍ يتسرَّب الشَّكُ إليها أنَّها مُخطِئة، أو أنَّها لم تفهم جيِّدًا، أو تتذكَّر الأيَّام الخوالي واللحظات السعيدة، والضَّحكات الصَّافية البريئة، فيأكلها النَّدم وتقرضُ في أظافرها حَسْرَةً وغمًّا، وساعتها تبكي حظَّها العاثرَ، حاولَ أكثر من شابٍّ أن يتودَّد إليها، ولكنَّ العلاقةَ لم تكنْ تتطوَّرُ؛ بسبب صمتِها وعدم قدرتِها على الاندماج، وتحفُّظِها المبالغِ فيه، أمَّا السَّيِّدةُ الطَّيبةُ أمُّها فوضعتْ أصابعَها العشرَ في الشّقِّ من أعمالِها السُّوء؛ فكلَّما كان لدى الجيران فرحٌ، أو أقاربُ، تُلحُّ عليها أن تذهبَ، أو ترقصَ مثل البناتِ، ولكنَّها "أبدا" كانت ترى عيون النَّاس أبرًا تتابعُها، وترصدُ كلَّ حركةٍ تقوم بها، ليسلخوا جلدَها، ويستبيحوها؛ لذلكَ كانت تمشي في الشَّارع شامخةً كعسكريٍّ دكتاتوريٍّ أجوفَ، يستعرضُ حرسَ الشَّرف، فكانت تُثيرُ الضَّحك، أو الرِّثاء.

في يوم كانت تجلسُ في المكتب وحدَها بعد غياب زملاءٍ ونزول آخرينَ مُبكِّرًا، مُستجيبةً لسيلٍ من أحلامِ اليقظةِ، حتَّى إنَّها انفعلتْ، فقامتْ تدورُ في المكتبِ،

وتوقَّفتْ أمام نتيجة الحائطِ، وقد انتبهتْ إلى أنَّ اليوم عيد ميلادها الثَّامن والعشرين، وضعت يدها على جبهتِها، وتركتْ المصلحَةَ عائدةً إلى البيتِ، دخلتْ غُرفتَها ووقفتْ أمام المِرْآة، تتأمَّلُ وجهَها وجسمَها، وعندما تعبتْ من الوقفةِ، جلستْ على السّريرِ ونامتْ بملابسِها، وعندما تيقَّظتْ استحمتْ؛ فحدثَ لها نوعٌ من الانتعاشِ، وقالتْ: أنا حياتي هكذا جميلة!، وأنا مكتفيةٌ بنفسِي ويكفي سلامي الرُّوحيّ الذي لا يُكدِّرُهُ شيءٌ، ولا يجبُ أبدًا أن أغيِّرَه من أجل أحدٍ، مُغامرةٌ غيرُ محسوبةٍ، مَن يُريدُ أن يتوافقَ مع حياتي، أهلاً !.. واستراحتْ لقرارِها وظلَّتْ هكذا تعملُ إلى أن عادَ للمصلحةِ موظفٌ جديدٌ، كان حاصِلاً على إجازة بدون مُرتَّبٍ، وظلَّ في الكويتِ لمدَّةِ ١٢ عامًا، ولم يتزوجْ بعدُ، وكانت عودُته واستقرارُه في مصر؛ لأنَّه حقَّقَ استقرارًا ماديًّا، يتيحُ له أن يعيشَ حياتَه بدونِ عملٍ، ولكنَّه ليسَ بالإنسان الخاملِ كي يعيشَ عاطلاً، كما أنَّه يُريدُ أن يختلطَ بالنَّاسِ، لكي يتزوجَ فتاةً صالحةً، يكمِلُ معها دينَه.

في أوَّلِ يومٍ يدخلُ الإدارةَ استقبلتْه استقبالاً حارًا شفقةً عليه، عندما وجدتْ الموظَّفينَ يقابلونه بفتورٍ، غيرةً وحسدًا؛ لأنَّه كانَ يركب سيَّارةً باهظة الثَّمنِ ويرتدي ملابسَ غاليةً، وفي الوقت نفسِهِ بسيطةٌ، رغمَ أنَّها لم تكن تعرفه قبل ذلكَ، ورغم تحفُّظها ، ولكنَّ شخصيته

الأريحيَّة البسيطةَ خلقتْ نوعًا من الألفةِ والصَّداقةِ، توطَّدتْ عبْرَ الأيَّامِ، لم يكن يخطئُ، أو يجرحها بكلمةٍ، يفهمُها بصورةٍ مثاليةٍ، لم تعدْ إلى البيت مرَّةً واحدةً وفي داخلِها ريبة أو غضبٌ، حتَّى إنَّها كانتْ تستغربُ نفسَها، ولأوَّلِ مرَّةٍ تشعرُ أنَّها سعيدةٌ، وأنَّ حياتَها الغابرَةَ كانتْ محضَ وهمٍ، محضَ خسارةٍ فادحةٍ، تحوَّلتْ حياتُها من كائنٍ منطوٍ بائسٍ، إلى كائنٍ مُنطلِقٍ سعيدٍ لديه حبُّ المغامرةِ، كانتْ تحكي له كلَّ شيءٍ يحدث لها، في غيابه، حتَّى إنَّه كان يوصلها إلى بيتها في المنيل، ثم يذهبُ بعدَ ذلك إلى شقَّته، في مدينة نصر، ولم تعد تأبهُ بالجيرانِ وبنظراتهم الخبيثة؛ بلْ كانت تتعمَّدُ أن تظلَّ يدها في يدِه فترة طويلة، أو تقوم بتدليله مُتعمِّدةً؛ حتَّى تكسرَ حدَّةَ نظراتهم وعنفها، ظلاَّ هكذا سنواتٍ، على هذه الحالِ؛ تحكي له ويحكي لها، يأكلان معًا، يذهبانِ إلى السِّينما، ولكنْ ظلَّ هناك شيءٌ مُعلَّقٌ، شيءٌ كانت تحاول أن تفهمَه، هل ستظلُّ العلاقةُ هكذا؟، أليس من الطبيعيِّ أن ننتقلَ إلى مرحلةٍ أخرى أوسع مدى؟، لماذا لا يتكلَّم؟، ما الذي يجعلها تُحجِمُ عن الكلام؟ ؛ رغم أنَّها تعلمُ جيِّدًا أنَّه لا يُكلِّم أحدًا، وأنَّها الوحيدة التي يألفُها وتألفُه، هناك شيءٌ! ،هكذا قالت، مستحيلٌ أن تظلَّ العلاقة هكذا، لقد أصبحتْ تُحبُّه بالفِعلِ، وترى حبَّه في عينيْه، في خوفِه عليها، في دِفءِ كلماتِهِ، في حنانِهِ الزَّائدِ، كانتْ تشعرُ أنَّه روحٌ

طيِّبةٌ وأن ماءَه عذبةٌ لم تلوَّثْ، هل أقوم أنا بهذه المُهمَّة؟، لا، مستحيل، روحي غير قادرةٍ على فعلِ هذا، وما الذي سأخسره ، مجرَّد مطَّب، وبعد ذلك تسيرُ الحياةُ بشكل طبيعيٍّ، وماذا لو حدث شيءٌ، ولو ١% عطل، أن أفقدَ صديقًا أو حبيبًا، حتَّى لو من طرفٍ واحدٍ، هل من الطَّبيعي أن أُضيِّعَ كل ذلكَ من أجلِ مجهول، أنا هكذا حياتي مُزدهرةٌ، متألِّقةٌ، لا أعتقدُ أنَّ وضْعًا آخر سيُضيفُ شيئًا، لم تنمْ في تلك الليلة وفضَّلتْ عدمَ الذِّهاب إلى العمل، اتَّصل بها، ومر عليها آخر النَّهار، وذهبا إلى حديقة الأسماك، ثم دخلا مطعمًا وتناولا الطَّعام، وعادتْ قربَ العاشرةِ، إلى العمل ، لا شيءَ تغيَّر، حتَّى إنَّ زملاءَها أخذا يضايقونها بوقاحة، حتَّى إنَّها قررَّتْ أن تغامرَ حتَّى لو خسرتْ كلَّ شيءٍ، لم تعدْ تحتملُ هذه الحياة، اتَّصلتْ به بالتليفون وقالت له إنَّها ستزورُهُ اليومَ قُرْبَ المَسَاء، ارتدتْ جيبةً نبيتي وبلوزةً بيضاءَ، وذهبت للكوافير، كانت ما تزالُ نضرةً وجميلةً جمالا من نوعٍ خاصٍّ، أخذتْ تُرتِّبُ الكلامَ الذي ستقوله، تحذفُ كلمةً، ثم تُضيفُ جملةً، وعندما وصلتْ كانت قد رتَّبتْ ما تقوله في دقَّةٍ لا تُحْتمَلُ، دقَّتْ الجرسَ، فخرجَ، ورحَّب بها، وأخذا يستكملانِ حديثهما كالعادة، وهيَ تتحيَّنُ الفرصةَ للدِّخولِ في الموضوعِ مُباشرةً، ولكنْ لم تجدْ الفُرصةَ، حتَّى قام فجأةً، وقد ضربَ بيده على جبهتِهِ : تشربي

إيه؟، قالت: لازم؟، طبعًا، قهوة، خرج، وهيَ أخذتْ تتجوَّل بعينيها في الشَّقة المطليَّة بالألوانِ الزَّرقاء والبيضاءِ، ممَّا يُضفي عليها سحرًا وجمالاً، تأمَّلتْ صورةً له مُعلَّقة على الحائط، وبعضَ اللوحاتِ الفنيَّة؛ منها لوحةٌ مُعلَّقةٌ في مواجهتها تمامًا؛ لوحة فان جوخ: عبَّاد الشَّمس، أخذتْ تتأمَّلُ في اللوحةِ فترةً طويلةً، حتَّى تسلَّلَ إليها نوعٌ من الحزنِ، نوعٌ من الأسى، لم تعرفْ كيف تسلَّلَ إليها، تنظرُ إلى انحناءِ عبَّاد الشَّمس، ترى فيه كيانًا حيًّا مُبهجًا ومشرقًا، ولكن داخله يُوجَد انكسارٌ، ذبولٌ، مَوَاتٌ، وكلُّ هذا الإشراقِ وَهْمٌ، خافتْ من اللوحةِ، خافت من غيابه، وأنَّها لو ظلَّتْ هكذا تنظرُ إلى اللوحة ستجفُّ، ولو حرَّكتْ يديها على اللوحة لاختفتا!، تعرَّقتْ وهي ترى نفسَها في دوَّامة، حقيقيَّةٍ، وأنَّها تخبو، تخورُ، وأنَّ الفرح الذي بداخلها قد تبخَّرَ، و جسدُها قد ثقُلَ حتَّى أصبحتْ كالجثَّةِ، وفقدتْ أيَّ رغبةٍ لها في الكلام، انتزعَتْ نفسَها وجرجرتْ رِجْلَها، وخرجتْ من الشَّقةِ، نزلتْ إلى الشَّارع، أشارتْ لتاكسي فتوقَّفَ، ركبتْ، وانطلقَ مُبتعدًا عن الشَّقةِ؛ فشعرتْ بالارتياحِ، وصوتٌ يتردَّدُ داخلها: مفيش أيّ سبب يخليني أغيّر حياتي! .

# غِيلةً

لا أحدَ يعلمُ مدى الألم الذي أُعانيه، عندما أذهبُ إلى البيتِ، حيثُ تستقبلني أمِّي بوجه شاحبٍ، وعينينِ منطفئتين، وملابسَ قاتمةٍ كئيبةٍ، ولكنْ لا خيارَ لديَّ؛ فلا يمكن أن أتجاهلَ الأمرَ، وأمارس حياتي الطبيعيَّة، كأن لم يحدثْ شيءٌ، وكأنَّ الذي فقدَ الحياةَ غدرًا وخِسَّةً لم يكن صاحبي، لم نبتهجْ، نغني، نرقصُ، نحلم ببكرة من غير ألم، نأكل فى مطاعمَ رخيصةٍ، نلتقطُ هِبَاتٍ من السَّندوتشاتِ منْ عابريْ السبيل، نجري هربًا من شرطةٍ تُطلقُ أعيرةً ناريَّةً، ونضحكُ بعد أن نُفلِتَ منْ الموت، "الحياة حلوة يا ولاد الكلب!"، الغياب مريرٌ.

دخلتُ البيتَ وجدتُها تضعُ الطَّعامَ على التَّرابيزةِ، كانتْ ذاهلةً، تُحاولُ أن تكون مُتماسِكةً، ولكنْ هناكَ شيءٌ سقطَ منها، مشوشةٌ، تجدُها تغنِّي بهدوءٍ أغانيَ شعبيَّة، ثم تضحكُ، وفي اللحظةِ نفسِها، تجدُ سيلاً من الدِّموعِ ينزلُ على خدِّها، ويسقطُ أو يستقرُّ على شفتيها.

جلستُ على الكرسيِّ أمامَ الأبِ، الذي يُدخِّنُ في هدوء، ثم اقتربَ منِّي وهمسَ: فيه أمل؟، قلتُ بلا تردُّدٍ، وبي يقينٌ كاملٌ لا يتزحزحُ: نعم ، نعم ، أُردِّدُها حتَّى وضَعَ يدَهُ على شفتيَّ: خلاص!، خلاص!.

وضعتْ أمامي الشَّاي وقالت: هو ما جاش ليه؟، قلت: في الميدان، أنت عارفة المحارب لا يمكن يترك ساحة المعركة أثناء القتال!، سالتْ الدِّموعُ، واعوَّج فمُها: وحشني!، وحشنيى حبيبي الصّغير!.. طبطبَ الزَّوجُ على ظهرِها وقال: احنا اتَّفقنا ان ماهر " فدوة" قالت: تمام، تمام، وأخذتْ تُجفِّفُ دموعَها، ثم قامَ ودخلَ المطبخَ، بكى وقال: والله، والله شفته في أرض خضرة!، مساحات لا تنتهي!، يلعب الكُرة، وفي غاية السعادة!..

أحضرتْ الكرتونة، ووضعت فيها السَّندوتشات، وعندما انتهتْ حملتُ الكرتونة على صدري ونزلت إلى الشَّارع، ٦ أشهر وهي تتعاملُ على أنَّ ماهر مازالَ حيًّا، يحرسُ الميدان، وكلّ يوم أتردَّدُ على البيتِ، وأخرجُ من البيتِ، لا أعرف ماذا أعملُ بهذا الطَّعام؟.

أسيرُ في الشَّارعِ، أشعرُ باليُتمِ، وتمرُّ على عيني صورتُهُ، صُلبٌ لا يأبه، بريءٌ يُحبُّ الحياةَ حدَّ الجُنونِ، يُريدُ أن ينتزعَ الحُريَّةَ بيديه، كأنَّها كائنٌ حيٌّ ملموسٌ، نزلنا في هذا الصَّباحِ، أحملُ الطَّعامَ وهو يحملُ في يده لافتةً، لافتةً فقط، ملفوفةً في يديه ،ركبنا الباص المُتَّجهِ إلى مدينة نصر، مال عليَّ، وقال:

لم أعدْ أحتملهم على كتفي!

قلت: مين؟

قال: أرواح الرَّاحلين!

ابتسمتُ غيرَ قادرٍ على الفهمِ:
بتحلم بيهم؟
قال: أحملهم على ظهري!.
ضحكتُ ضحكةً سخيفةً، على الرَّغمِ من أنَّنا رفقاءُ طريقٍ، خطوة بخطوة، ولكنَّني كنتُ أشعرُ أنَّه يسبقني دائمًا، وثمَّة مسافةٌ بيننا، كانَ يومًا وراء الآخر يشفُّ ويُشرقُ، نزَّلني من الباص وداخلي غُصَّةٌ، جعلني أبتعد عنه قليلاً وهو قد فرد اللافتة، ويجري في الشَّارع يهتفُ للحريَّة، يهتف للعدل، كانَ صوتُه وحده مُميَّزًا، تم تحذيره أن يبتعدَ لكنَّه ردَّ عليهم: لماذا تُرعبُكم لافتة!، لافتة فقط!، واستدارَ، ومضى وظهرُهُ تجاهَ الجنودِ، كانَ يهتفُ، وهم يُردِّدونَ وراءَه: عيش!، حُريَّة!، عدالة اجتماعيَّة!، وأنا أتجوَّلُ بعيني مُندسًّا وسطَ الزِّحام، رأيتُ الجنديُّ يُخرجُ المسدَّسَ، هتفتُ: ماهر!.. تك ، انطلقتْ رصاصةٌ في الظَّهرِ، سقطَ منكفئًا على وجهِهِ، صرخْتُ أجري وألطمُ كالنِّساء، تراجعَ الجنودُ وراءَ الأسلاكِ الشَّائكة، جريتُ نحوَه، وقلبتُهُ على ظهرِهِ، ثم حملتُهُ على صدري، وأنا أبكي، والأخوةُ يحثُّونَه على نُطقِ الشَّهادةِ، وأنا أقرِّبُ أذني لكي أسمعَ ما يقولُ، ينزفُ ويشهقُ باحثًا عن هواء، سمعتُهُ يقول: خلاص!، قلت له : لا مش خلاص!، ثم تمَّ سحبه داخل تاكسي أضعه على صدري، وأسمعُ نبضَ قلبه الضَّعيف،

وأقول له: أنا واثقٌ أنَّك هتمرُّ وتعيش وكل دا هيبقى ذكريات!، ذكريات يا صاحبي.

# كهلٌ في حقلِ التِّين

انقطعَ سيري في الطُّرقِ الجبليَّةِ منذُ عشريْنَ عامًا تقريبًا، بعدَ أنْ بعنا أرضَنا هناك، وتوقفْتُ عن العَمَلِ في جَمْعِ التِّين، ولم يكُنْ لديَّ أيُّ حنينٍ لهذه الأماكن؛ لذلك استغربْتُ أنْ أجدني عائدًا في مَسَارٍ جبليٍّ تُحيطُني أشجارُ التِّينِ، إلى أينِ؟ لا أعرف، تائهًا كالعادةِ عندما أتعرَّضُ لحرارةِ الشَّمسِ القويَّةِ؛ بسببِ ما أُعاني من فقرِ دمٍ؛ نتيجةَ نقصِ الحديد، ولكنَّني كنتُ مُتأكِّدًا أنَّني سأتذكَّرُ الهدفَ الذي أسعى إليه؛ حيثُ قدمي تغوصُ في الرَّملِ السَّاخنِ.

لم نكنْ في موسِمِ جمْعِ التِّين؛ لذلكَ انْدَهشتُ منْ وجودِ أصابع قليلةٍ مُتناثرةٍ فوق شواشي ألواحِ التِّين صفراء مُتألِّقة، توقَّفتُ أنظرُ إليها، وأنا أشاورُ عقلي بالدُّخولِ، وجمْعِ الأصابعِ، ولكنَّني كنتُ خائفًا من الشَّوكِ؛ فحرارَةُ الجوِّ تجعله مُشرَعًا وقاسيًا ، وكنتُ بخبرتي أعرفُ أنَّني مهما كنتُ حريصًا فلن أنجوَ منْ وخزاتِ آلافِ الإبر الصَّغيرةِ الشِّريرَةِ، ابتلعتُ ريقي شهوَةً، وزادتْ رغبتي بشكلٍ جنونيٍّ؛ لذلكَ انسللتُ بينَ الأشجارِ وأنا أُزيحُ الأقحفَ الجافةَ، وأقطعُ الأقحفَ الخضراءَ التي تسدُّ الطَّريقَ ، حتَّى وصلْتُ إلى الشَّجرةِ المأمولةِ، فوجدتُ أنَّ هناك أصبعًا قريبًا من يدي، فالتقطتُ واحدًا وقشَّرتُه، وأكلتُه، كان رطبًا، لذيذًا، نظرتُ للإصبع العالي، وأنا أُفكِّرُ في كيفيَّةِ

الصُّعودِ دونَ أن أسقُطَ، التقطتُ أصبعًا آخر، وآخر، وآخر وأخذتُ أقشِّرُ وآكل، ثم دُستُ على لوح لكي ألتقطَ الثِّمارَ العاليةَ؛ فسقطَ لثقلِ جسدي، فيئِست، وخرجتُ وفي يدي أصبعٌ، فوجدتُها أمامي؛ طفلة تبدو في التَّاسعَةِ، ترتدي فستانًا قصيرًا بحمَّالاتٍ، مُتعدِّد الألوان، كانتْ جميلةً، قلت: البنت دي لمَّا تكبر هتبقى فتنة!، اقتربتُ منها، وقلتُ لها:
أنتِ إيه اللي طلَّعك من بيتكم في الحرّ دا؟
لم ترُدْ فصمتُّ ، كانَ وجهُها أحمرَ ونقيًّا ، قشَّرتُ أصبعَ التِّين الأخير وناولته لها، فأخذته مني وأكلته ، وقد بانَ عليها الفرَحُ، سعدتُ لفرحِها، وتركتُها وسِرتُ في طريقي، وعندما تقدَّمتُ في السَّيرِ شعرتُ أنَّها ورائي، نظرتُ خلفي، وجدتُها تتبعُني، قلت لها: ارجعي!، لم ترُدْ، واستمرَّتْ في السَّيرِ، رجعتُ إليها وقلتُ لها: أنت رايحة فين في الحر دا؟، وأهلك فين؟
لم ترُدْ، خِفتُ أن يراني أحدٌ مع طفلةٍ، وأنا الرَّجلُ الأشيبُ الذي قاربَ على الخمسين، ويسألني: واخذ البنت دي ورايح فين؟، خاصةً معَ انتشارِ التَّحرُّشِ واغتصابِ الأطفالِ في الفترةِ الأخيرَةِ، شعرتُ بهولِ المُصِيبةِ الَّتي أنا فيها، و ضربتُ كفًّا بكفٍّ منْ هذه الَّتي تتبعُني.
الشَّمسُ يزدادُ لهيبُها، وأنا أسيرُ حتَّى نسيتها، وعندما تذكرتُها تلفَّتُ وجدتُها تلهثُ ورائي ثم توقَّفتْ ، اقتربتُ منها، كانَ العرقُ ينزلُ خطوطًا من على جبهتِها، ووجهُهَا مُلتهِبٌ، قلت لها:
الطَّريق طويل وأنت كدا هتموتي!.

سحبتُها من يدِها واقتربتُ من شجرةِ تينٍ وأوقفتُها أمامي في ظلِّي الشَّحيحِ، استكانتْ ثم قالتْ لي: أنا عطشانة!، قلتُ:
أنا عارف ان فيه توتة قريبة من هنا، وتحتها طلمبة، نستريح شويّة ونروح.
شعرُها ذيلُ حصانٍ، وضعتُ يدي على كتفِها العاري، وأخذتُ أتأمَّلُ رقبتَها، والزَّغب النَّامي على جِلدِها، وتطايرَ الشَّعرُ المُنفلِتُ من العقدةِ على ظهرِها، شعرتُ نحوها بحنانٍ غريبٍ لم يغزُ قلبي منذُ فترةٍ طويلةٍ، وقلتُ: لقد فاتني الكثيرُ ثم نظرتُ فوجدْتُ رجلينِ يتَّجهانِ نحونا، وأخذَاها منِّي دونَ كلامٍ، وعندما أصبحتُ وحدي قرَّرتُ أن أعودَ إلى البيتِ مرَّةً ثانيةً، وعندما اقتربتُ من البلدةِ وجدتُ زوجتي تُقابلُني مُتجهِّمةً، وقالت لي:
أنت عملت إيه مع البنت؟
قلت: أبدًا والله ما عملت حاجة، أقسم بالله!
قالت غاضبة:
طيِّب ومين قلَّع البنت الكلوت؟
قلت: أقسم لك بالله لم أقلعها أي شيء!
حلقي جفَّ، وشعرتُ بالمرارة
احنا مالقناش الكلوت بتاع البنت ولقينا منيّ على فخذها.
منيّ؟
ايوه منيّ!، عشان كده تركتنا وعشت في شقة لوحدك يا مفضوح!
أنت ليه بتقولي كدا؟

استدارتْ لي وقابلتني وجهًا لوجه، وجهُها يطفحُ بالحقدِ والمرارة، وقد اصفرَّ اصفرارًا غريبًا وقالت لي:
أنت جرَّستنا!
لم أستطعْ الردَّ، وتواردَ على مُخيِّلتي بنتي وأبنائي وجيراني وأصدقائي، ساعتها شعرتُ بالحرجِ الشَّديدِ، وأنَّني فعلاً اغتصبت هذه الطفلة، تهدَّلتُ، وشعرتُ بمصيري من البدايةِ حتَّى النِّهاية: محض هراء. تركتني زوجتي وأنا سِرْتُ عائدًا إلى البيت، لا أعرفُ ما الذي عليَّ أن أفعلَه وأنا أفكِّرُ في الخلاصِ، وجدتُهم يجرونَ ناحيتي، وقفتُ، وشددتُ نفَسًا عميقًا من السِّيجارة ثم نفَسًا آخر، يحملون العصيَّ والطُّوبَ، وأنا أشدُّ نفَسًا عميقًا جدًّا من السِّيجارةِ المُنتهيةِ، وجوهٌ مُتجهِّمةٌ، غاضبةٌ تقتربُ، حجرٌ اصطدمَ برأسي، فسقطتُ، ودارتْ الدُّنيا بي، تأتيني أصواتُهم من بعيدٍ، السِّيجارة في يدي، والعصيُّ تنزلُ على جسَدِي، والأصْواتُ، والأضْواءُ، والرَّوائحُ، تختفي، وأنا في النَّزعِ الأخير، وجدتُهم يخلعونَ عنِّي الجلاَّبيَّة، وينزعونَ عنِّي الكلسون، لا أعرف لماذا؟

# الفِهْرِس


١ - خِزْي .....
٢ – عُري .....
٣- عَرَاء .....
٤ - المُمثِّلة .....
٥- يدٌ بيضاءُ مُشعَّة .....
٦- السَّيِّدةُ ذاتَ القُرْط .....
٧ - سعديَّة الغازيَّة .....
٨ - ليْلُ رجُلٍ هَرِم .....
٩ - عبَّاد الشَّمس .....
١٠ - غِيْلَة .....
١١- كهلٌ في حقلِ التِّين .....